محمد الخليلي

من أمالي الإمام الصادق

وهو شرح ما أملاه الإمام ع على تلميذه
المفضل بن عمر الجعفي

مؤسسة الوفاء

محمد الخليلي

من أمالي الإمام الصادق عليه السلام

وهو شرح ما أملاه الإمام ع على تلميذه المفضل بن عمر الجعفي

الجزء الرابع

مؤسسة الوفاء
بيروت - لبنان

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
nktba.net رابط بديل

كافة الحقوق محفوظة ومسجلة
الطبعة الأولى
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

مؤسسة الوفاء

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

رب اوزعني ان اشكر شكراً بفي بنعمك الجليلة الجزيلة التي انعمت بها عليّ طيلة حياتي ، فقد اوليتنيها تفضلا دون استحقاق مني لها على عمل الهم الا رحمتك الواسعة ولطفك الشامل وكرمك العميم .

احمدك حمداً على ان وفقتني لشرح هذه الرسالة التوحيدية الجليلة، وهديتني لبيان مقاصدها السامية واهدافها العالية حسب مقدوري واستعدادي ، ثم اعنتني على اكمال شرح اجزائها الاربعة التي بها ينتهي البيان ويكمل الشرح .

واصلي واسلم على رسولك البشير النذير ونبيك السراج المنير الذي بعثته منقذاً للبشرية من براثن الشرك والضلال ، ومنتشلا الانسانية من هوة الالحاد والهمجية ، وعلى آله سبل النجاة ومصابيح الهدى ، وصحبه التابعين له والعاملين بشرعته .

وبعد : فقد شاء القدر ان نعيش في عصر تزعزعت فيه اركان العقيدة الدينية وانطلقت فيه الافكار المريضة والاهواء الفاسدة ، واخذت الفلسفة

المادية تلعب دورها في العقول الساذجة من ضعاف الايمان قليلي التعقل والتروي.

فلقد فاجأتنا الفلسفة الحسية التي لا تعتقد ولا تؤمن بغير المحسوس ، وليس للعقل مجال عندها ، زاعمة ان ماعدا المحسوس وهم وخرافة وتضليل لا يقره العلم الطبيعي وقد ايدها الماديون القائلون بان اصل الانسان قرد اوان له قرابة بالقرود ولذلك اصبحوا يرون ان عهد الديانات قد انقضى بعد ان لعبت (الديانات) دورها القاسي على مسرح الانسانية الجاهلة يومذاك ، غير ان انتشار العلم الطبيعي اظهر الحقيقة وابان للعالم ان ماكان من امر الدين اشبه ما يكون بالخيال والخرافة منه بالحقيقة والواقع ، الى اكثر من هذا مما لا يركن الى عقل ولا يستند الى دليل معقول حتى عند اجهل الناس .

وحيث ان هذه الفلسفة السخيفة لا تقوم على اساس معقول ، فان اصحابها كانوا يستهوون النفوس الضعيفة الواطئة بنشر الحريات الشخصية واباحة كل ما تميل اليه النفوس الشريرة امثال الشيوعية والفوضوية واضرابها من الفلسفات الهدامة التي تهدد اسعاد البشر بالزوال وراحة العالم بالانعدام .

فكان هذا الداء العضال الذي منى به العالم وهذه البلية الكبرى التي ابتلي بها ابناء هذا العصر المساكين مما عز على ذوي العقول السليمة علاجه وعسر على المصلحين ان يصدوا تياره الجارف القوي ، واخيراً وبعد ان اعيتهم الحيل وضاقت بهم السبل ، لم يجدوا بداً من ان يلجؤا من شرور تلك الطواريء الخبيثة الشريرة الى مأمن الدين السماوي الذي هبط به خالق الانسان لصالح الانسان ، وان يركنوا الى الشريعة التي نزلت من بارىء النفوس لاسعاد النفوس فان باتباع تعاليمها القويمة العلاج الشافي ، وبالعمل بقوانينها الحكيمة الراحة والسعادة ، لذلك اخذوا ينادون ويرشدون الى ذلك بكل حول وطول وبشتى

الطرق والاساليب حتى بحت الاصوات وجفت الحناجر فلم تسمع اصواتهم ولم تنفع ارشاداتهم ونصائحهم بل بالعكس اصبحنا نرى مع الاسف معظم شبابنا اليوم وهم الذين كنا نرجو وننتظر منهم ان يكونوا رجال المستقبل وقادة الشعب الى الامام يراحوا يكرعون بحموم تلك الفلسفات المجرمة بكل نهم وشوق دون ادراك ما فيها من عطب وهلاك اما لجهلهم او لعدم استطاعة ضبط النفس عن الوقوع في شباكها حتى شل تفكيرهم وعميت بصائرهم عن رؤية صالحهم ، وحتى فصلوا عن مجموعة شعبهم ، فاصبحوا وهم في وطنهم وبلادهم وبين اظهر ابناء جنسهم ، يعيشون عيشة نكده تعيسة وذلك لانهم ارادوا تقليد الغرب في آرائهم واقوالهم وافعالهم ، فلم يتسن لهم ، وكرهوا حياة ابناء جنسهم وعادات وطنهم وارادوا الفرار منها فلم يتمكنوا فكانوا مع الاسف متورجين في حياتهم فلا هم غربيون كما يرغبون ، ولا هم شرقيون كما يقتضيه محيطهم .

كل هذا وهم غافلون او متغافلون عن انهم خلقوا من شعب لا يمت محيطه الى الغرب بصلة ، لا في الصفات ولا في العادات ولا المزاج ولا الميـــول ولا العواطف ، اذن فلا يكون الشرقي غربياً مهما قلد واجهد نفسه في التقليد ، ولا الغربي شرقياً لذلك .

فانظر كيف يصبح هذا الشرقي المقلد وهو في صراع روحي مرير وعذاب نفسي مستمر وحياة نكدة غير مرضية .

اليس من المؤسف المبكي ان تضيع منا مجموعة من شبابنا المامول به اصلاح الشعب ورقي البلاد ورفاهية الاهلين .

اجل : لو تأملنا في حال هؤلاء المساكين الحيارى وفتشنا عن العلة في ذلك التورجرج والحيرة لم نجد سبباً له سوى الجهل والاطماع الكاذبة الحاصلين من

بعدهم من المبدأ الاسلامي السامي ، وتركهم لعقيدتهم التي كانت هي الكفيلة بنشر الامن والسعادة في الربوع الاسلامية بل في العالم اجمع ليكون الانسان العامل بموجبها في حياة هانئة مطمئنة في النشأتين .

ومن هنا كان لزاماً على المصلحين والعاملين بوظائفهم الدينية من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر تنبيه الغافل وارشاد التائه وافهام الجاهل بكل ما اوتوا من قوة ونشاط وعلم واطلاع لا سيما وهم في عصر الثقافة والعلوم .

وذلك اما بنشر الكتب والرسائل او بالتآليف النافعة او النشرات الدينية المفيدة وما اشبه ذلك من كل ما يوقظ من نوم الغفلة ويهدي الى الطريق اللاحب طريق الاسلام الحق والدين والعدل ، فلقد اصبح هذا الامر واجب كل مسلم يستطيع ان يؤديه من هذا المنهج النافع المفيد .

وعلى هذا او لاجل هذا اخذت على عاتقي شرح هذه المجالس الاربعة التي املى الامام عليه السلام فيها على المفضل ما يثبت التوحيد ويدحض مزاعم الملحدين وذوي الاهواء والبدع .

فلقد حوت هذه الرسالة من العبر والعظات واشتملت عليه من الدلائل والشواهد على القصد والارادة والعمد في الخلقة ما حفزني على الاقدام على شرحها وابراز ما خفي من اهدافها ومقاصدها راجياً ان اكون قد اديت فرضي الاسلامي حسب مستطاعي ومقدوري انشاء الله .

وها هو ذا الجزء الرابع والاخير بين يديك ايها القارىء الكريم سائلا به المولى جل شأنه ان يجعله مع الاجزاء الثلاثة المتقدمة مفيداً لك ووسيلة لي في يوم يعطى من شملته الرحمة والرضوان كتابه بيمينه .

مقدماً خالص ولائي للنبي الكريم (ص) وحبي لآل بيته الطاهرين سيما سيدي ومولاي الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام الذي ارجو ان يكون لي شفيعاً عند الله تعالى في قبول هذا العمل المتواضع والبضاعة المزجاة.

مصلياً على رسول التوحيد خاتم الانبياء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

محمد الخليلي

الشروع في الكلام

قال المفضل : فلما كان اليوم الرابع بكرت الى مولاى فاستؤذن لى فامرني بالجلوس فجلست فقال عليه السلام منا التحميد والتسبيح

يقول المفضل : ولما اصبح الصباح من اليوم الرابع من الايام التي كان الامام عليه السلام يلقي علي فيها محاضراته الحكيمة القيمة في اثبات التوحيد ، وقد كنت قضيت ليالي في اشد الانتظار لما سيمليه علي سيدي من العبر والعظات ويلقيه علي مسامعي من الآيات البينات التي تزيدني ايمانا وتقوى حجتي على الخصم الملحد والعاند المنحرف ،

فبكرت الى دار مولاي وطلبت الاذن بالدخول عليه ، فاستؤذن لي فاذن عليه السلام ولما دخلت امرني بالجلوس فجلست امتثالا لامره وانتظاراً لكلامه وكلي شوق واقبال علي ما سيتكلم به .

فقال عليه السلام : (منا التحميد والتسبيح والتعظيم) .

اقول : التحميد مصدر تحمد (بتشديد الميم) وهو الثناء مرة بعد مرة اى قول الحمد لله متكرراً .

وفي الاساس للزمخشري تحمد بمعني استحمد اي طلب الحمد فيقال استحمد الله الى خلقه اي طلب اليهم ان يحمدوه ليجزيهم على الحمد ويثيبهم على ثنائهم المتكرر قال تعالى: وقل الحمد لله واشكروا لي ولا تكفرون- وفي الصحيفة السجادية

(يامن تحمد الى خلقه بحسن التجاوز)

والتسبيح هو تنزيه الله وتمجيده بقول (سبحان الله) . وسبحان ايضا مصدر كغفران فيكون المعنى : اني انزه الله تعالى تنزيهاً عما لا يليق بجناب قدسه وعز جلاله .

قال الطبرسى : ان كلمة (سبحان الله) صارت علماً في الشرع على مراتب التعظيم التى لا يستحقها الا الله تعالى ولذلك لا يجوز استعمالها في غيره .

وقال بعض الاعلام : التنزيه ثلاثة انواع :

(١) تنزيه الذات عن نقص الامكان .

(٢) تنزيه الصفات عن وصمة الحدوث وزيادتها على ذاته المقدسة .

(٣) تنزيه الافعال عن القبح والعبث وكونها جالبة للنفع اليه او دافعة للضرر عنه كافعال عباده ـ والتعظيم ـ هو التضخيم والتكبير والتبجيل اماعظمة الله تعالى فهى كمال الذات والصفات ، والمراد به هنا انا نعظم عظمة الله تعالى بمعرفتنا وقولنا وعملنا ونكبر شانه ونمجد كرمه الذي اكرمنا به دنيا وآخرة شكراً له .

وبعبارة اخصر انا نعظم ذاته الكريمة المشتملة على الصفات الحميدة.

وغير خفي ان التعظيم لله دليل الخشية منه ، وان التمسك بخالص طاعته مع الخوف والحذر من عقابه دليله العلم ، لذلك فان الخشية لما كانت حالة تحصل عند الشعور بعظمة الحق وهيبته ، وكانت هذه الحالة لا تحصل الا عند الاوحدى من الناس ، وهو العالم العارف فقد قال الله تعالى فى كتابه المجيد :

(انما يخشى الله من عباده العلماء) .

لان العلماء هم أحذر الناس من عقاب الله لمعرفتهم الحقيقية بحقيقة التوحيد والعدل وتصديقهم بالبعث والحساب والجنة والنار عن شعور ومعرفة ، ولا كذلك الجاهل .

والتقديس : هو تنزيه الله تعالى ووصفه بكونه قدوساً بعيداً عن السوء اما في الذات ويحصل بنفي الامكان المستلزم لنفي الكمثرة والتجسيم والعرضية والضد والند .

واما في الصفات فذلك بان يكون مبرأ عن الجهل والعجز وكل تغيير ، محيطا بكل المعلومات ، قادراً على كل المقدورات .

واما في الافعال وذلك بان لا تكون افعاله عبثاً ولا تكون لجلب منفعة لنفسه او دفع ضرر عنها وبالجملة فان التقديس هو تنزيه الواجب عما لا يليق به وعما يستلزم النقصان والافتقار .

اما الاسم الاقدم : فالاسم اولا هو ما دل على الذات ، ولفظ الجلالة (الله) اسم لذات واجب الوجود الجامع لجميع الخصال والكمال دون سائر الاسماء الحسنى مثل الخالق والرازق والعليم ونحوها فانها معان وصفات ، وليس التبرك والاستعانة به الا تعظيماً للمسمى . وهذا المعنى لا يدل على اتحاد الاسم والمسمى خلافا لبعض القائل بان اسماء الله تعالى عين ذاته .

وقد روى الكليني في الكافي عن هشام بن الحكم انه سأل الصادق عليه السلام عن اسماء الله تعالى واشتقاقها وعن الله مم يشتق ؟

قال عليه السلام : ياهشام ان الله مشتق من (اله) والاله يقتضي مألوها والاسم غير المسمى ، فمن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر ولم يعبد شيئاً ومن عبد الاسم والمعنى فقد كفر وعبد اثنين ومن عبد المعنى دون الاسم فذاك التوحيد المطلق . افهمت ياهشام ؟ قال فقلت زدني ، فقال عليه السلام ان لله (٩٩) اسماً فلو كان الاسم هو المسمى لكان كل اسم منها اله ، ولكن الله معنى تدل عليه هذه الاسماء وكلها غيره ، ياهشام الخبز اسم المأكول والماء اسم المشروب والثوب اسم للملبوس والنار اسم للمحرق ، افهمت ؟ قلت نعم يامولاى فقال عليه السلام : نفعك الله به وثبتك عليه .

والاقدم : هو القديم الابدي الذي لا اول لوجوده ولا آخر له ، والدليل على قدمه انه لو كان حادثاً لكان مفتقراً الى موجد فلا يكون واجباً بالذات ولا مبدأ لجميع الكائنات والموجودات ولا تنتهي اليه سلسلة الممكنات ، ومن اقر بانه قديم لابد وان يقر بانه لا شيء قبله وبانه لا شيء معه فكيف يكون خالقه

ثم اعلم بان كلة (اقدم) هنا مجردة عن التفضيل اذ لا يقاس بقدمه تعالى قدم البته فيفضل عليه والتفضيل يحتاج الى التساوي في الشيء ثم زيادة احدهما على الآخر فيه .

قال بعض المحققين : ان الاسماء بالنسبة الى ذاته المقدسة على اقسام ثلاثة: الاول ما يمنع اطلاقه عليه وهو كل اسم دل على معنى يحيل العقل نسبته الى ذاته الشريفة كالاسماء الدالة على الامور الجسمانية او ما هو مشتمل على النقص والحاجة

الثاني ما يجوز عقلا اطلاقه عليه وكان قد ورد في الكتاب والسنة تسميته به

. . . . . .

فهذا لا حرج في تسميته به ، بل يجب امتثال الشرع في كيفية اطلاقه بحسب الاوقات والاحوال والتعبدات اما وجوبا او ندبا .

الثالث ما يجوز اطلاقه عليه ولكن لم يرد في الكتاب والسنة كالجوهر مثلا فان احد معانيه كون الشيء قائماً بذاته غير مفتقر الى غيره ، ومن البديهي ان هذا المعنى ثابت له تعالى ، فلا مانع من تسميته به عقلا ، ولكن ليس من الادب استعماله لاحتمال عدم مناسبته من جهة اخرى لم نعلم بها نحن اذ العقل لم يكن مطلعاً على كافة ما يمكن ان يكون معلوماً وحينئذ كان الاولى والانسب اتباع امر الشرع في تلك التسمية ، فان اسماء الله تعالى كلها توقيفية ، اعني متوقفة على النص والاذن من الشارع .

قال الكفعمي في كتابه (التوحيد) عن الصادق عليه السلام ما ملخصة :

ان الله تعالى جعل الاسماء اربعة اجزاء اظهر منها ثلاثة لفاقة الناس اليها وحجب واحداً وهو الاسم الاقدم الاعظم المكنون المخزون ، ثم جعل لكل اسم من هذه الاسماء الظاهرة اربعة اركان ولكل ركن ثلاثين اسماً ، فالاركان (١٢) والاسماء (٣٦٠) اسماً .

وان اظهار هذه الاسماء وحجب الاسم الواحد وهو الاقدم المكنون المخزون منها لم يكن الا لحكمة اقتضاها ومصلحة الخلق ارادها ، كما حجب ليلة القدر في الليالي ، وساعة استجابة الدعاء في الساعات .

ثم قال عليه السلام : والنور الاعظم . اما النور لغة فهو الضوء المنتشر في الفضاء المبدد الظلمة وهو ضربان . اما ان يكون محسوساً بعين البصر وهو

ما انتشر من الاجسام المضيئة كالشمس والنجوم واما ان يكون معقولا يرى بعين البصيرة كنور العقل والانوار الآلهية ونور القرآن، وقد يطلق النور ويراد به الهداية لان النور لما كان سبباً لظهور الاشياء كانت الهداية مشاركة له في هذا المعنى فصح اذن اطلاق اسم النور عليها : قال تعالى

(الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور)

اى يخرجهم من ظلمات الكفر والشرك الى نور هدى الاسلام، وقد يطلق ويراد به القرآن، لانه هو السبب لانارة القلوب ودخول الايمان اليها، وقيل لانه يدرك به غوامض الحلال والحرام قال تعالى (ولكن جعلنا نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا) .

فالنور هنا وفى قوله تعالى (الله نور السموات والارض) مستعمل على نحو المجاز لا الحقيقة، اذ لو كان المراد منه الضياء الحقيقى لما كان العالم مظلماً على الدوام، لانه تعالى نورهما وهو موجود ابداً، ثم انه تعالى ليس من جنس الانوار لانه هو خالقها، والخالق غير المخلوق .

ولكن المقصود هو نور الهداية فانه سبحانه هو الهادي لاهل السموات والارض الى دينهم وصالحهم، كما يهتدون بالنور الى صالح دنياهم، وعلى هذا قال الامام عليه السلام :(النور الاعظم) اي اعظم هاد للعباد بل وكل مخلوق في السموات والارضين الى صالحهم دنياً وآخرة جلت عظمته .

اما العلى : فهو الذى تكون رتبته اعلى المراتب، كما ان المتعال هو البالغ في العلو، والمستعلى على كل شيء بقدرته والمنزه عن نعوت المخلوقات وعن كل ما لا يجوز عليه فى ذاته وصفاته، وهذه الصفة مختصة بالبارى تعالى دون سواه .

والعلام : هو كثير العلم وهو صفة تختص بالله تعالى وحده ، اما الانسان كثير العلم فيقال له علامة فقط .

اما علمه تعالى فهو عبارة عن انكشاف الأشياء له في الأزل كليها وجزئيها كل في وقته وبحسب مرتبته وعلى ما هو عليه فيما لا يزال . وهذا الانكشاف حاصل له تعالى بذاته قبل خلق الاشياء لا يغرب عنه شيء منها كلياتها وجزئياتها حقائقها ولوازمها وعوارضها وخواصها وحدودها التي تنتهي اليها بعلم قديم كامل من جميع الجهات .

قال بعض العلماء : ان لله علمين ، علم مبذول ونحن نعلمه ايضا بارادته وعلم مكفوف وهو الذي عنده في الكتاب اذا اخرج ونفذ كأنه يراد به اللوح المحفوظ .

اما قوله عليه السلام: ذو الجلال والاكرام فان المراد منه ذو العظمة والتكريم او ذو الاستغناء المطلق والفضل التام ، وقيل هو الذي عنده الجلال والاكرام للمخلصين من عباده .

وقيل ذو العظمة والكبرياء واستحقاق الحمد والمدح باحسانه الذي هو في اعلى مراتب الاحسان وبانعامه الذي هو اصل كل انعام والمكرم لانبيائه واوليائه بالطافه مع عظمته وجلالته ، وقيل معناه انه اهل لان يعظم وينزه عن ما لا يليق بصفاته ، وذلك كما يقول الانسان لغيره : انا اجلك واكرمك عن كذا اي انزهك وابعدك عن فعل كذا .

وقيل ان المراد من ذي الجلال اي ذو الصفات المنزهة عن الشريك والكون في جهة من الجهات وعن الجوهر والعرض .

والاكرام صفات الوجود مثل العلم والقدرة ، او ان الجلال صفة ذاتـــه والاكرام صفة فعله ، وقيل انهما الاسم الاعظم ، وعلى كل فقد وصفه الامام عليه السلام بهما تعظيماً واجلالا .

اما المنشىء : فهو اسم فاعل لفعل ، انشأ ينشأ انشاءاً بمعنى الابتداء بالخلقة دون سابقه ويرادفه الخالق اي المقدر لما يوجد ، والبارىء اي المميز بعضه عن بعض في الاشكال المختلفة او الصور اي المثل .

اما الانام : فقد قيل إن المراد منها الجن والانس ، وقيل كل ما على وجه الارض من جميع الخلق فيكون معنى منشىء الانام اي موجد جميـــع الخلق ومصورهم احسن تصوير دون سابقة مثال .

: امـــا معنى العوالم والدهور ، فان الافناء والابادة لفظان مترادفان بمعنى الهلاك والاضمحلال ، او التغيير الكلي من حال الى حال .

والعوالم جمع عالم (بفتح اللام) وعالم ايضا جمع لا مفرد له مثل القوم يطلق على ما حوى الفلك ، او على مجموعة من الخلائق متماثلة الوضع والخلقة كـــعالم الحيوان وعالم النبات وعالم الجماد، وقد يطلق على مجموعة في مكان واحد اوزمان واحد متآلفة الافراد والاجزاء كعالم الصبا مثلا .

اما الدهور فهو جمع دهر والدهر عبارة عن الزمان مطلقاً قل او كثر ، ويقع على مدة الدنيا كلها ، وقد سمى منكر البعث والقائل بقدم الدهر دهرياً

ثم قال عليه السلام : وصاحب السر المستور .

اقول : من المعلوم لدى العلماء ان لله تعالى الاسماء الحسنى والصفات العليا التي امرنا سبحانه ان ندعوه بها ليجيب دعاءنا بواسطتها اذ قال تعالى :(ادعوني

استجب لكم) .

فانه عليه السلام بعد ان حمد الله واثنى عليه اخذ يصفه بصفاته الخاصة مثل صاحب السر المستور والغيب المحظور والاسم المخزون والعلم المكنون .

قال بعض حكمائنا المعاصرين : ان السر هو العلم بالاشياء المختص هو به والمستور عن مخلوقاته مثل علمه بالساعة (وعنده علم الساعة) فالعلم بالساعة مستور عن الخلائق ولا يعلم بها الا هو .

اما الغيب المحظور فهو عبارة عن علمه بذاته وبكنهه وحقيقته ، فذلك مختص به تعالى ، اما غيره فممنوع محظور عن هذا العلم تكويناً وتشريعاً . وكيف لا يكون المخلوق ممنوعاً عنه تكويناً مع ان الله محيط والمخلوق محاط والمحاط لا يصير محيطا ، ثم ان ما سواه معلول والله تعالى علة والمعلول غير العلة . وقد اعترف بالعجز عن هذه المعرفة افضل المخلوقات بقوله (ص) (ما عرفناك حق معرفتك) وكذلك كيف لا يكون محظوراً تشريعاً وقد ورد النهي في الاخبار عن الورود والغور في معرفة الذات .

اذن فالسر المستور هو العلم بالاشياء التي اقتضت المصلحة ان يكون مستوراً عن غيره .

والغيب المحظور هو العلم الذي لا يليق لغيره ان يصل الى هذه المرتبة من العلم لعدم قابليته لها .

وفي معنى كلمات العلماء والعرفان : الغيب المحظور عبارة عن مرتبة الذات خالية عن جميع التعينات والتجليات والصفات ويعبر عنها (مرتبة غيب الغيوب) وليس لاحد طريق اليها بل ولا يحكى عنها لفظ من الالفاظ حتى لفظ الجلالة .

. . . . . .

فان لفظه الجلالة حاكية عن الذات المستحقة للصفات الكمالية . وبعبارة اخرى: حاكية عن الذات مع التعينات الصفاتية .

وقال آخر : ان من المعلوم المسلم ان الله تعالى قد استأثر في علم الغيب وحده وحجب البصائر عن النفوذ الى ما وراء الغيب فهو ممنوع ومحظور عن سواه تعالى .

اما علم الانبياء والاولياء بجزئيات الغيب فذالك باعلامه سبحانه اياهم ،وهو غير علمه الذاتي الذي تفرد به ومنعه عن سواه جل وعلا .

قال العلامة الآلوسي : لا يقال انهم علموا الغيب بالمعنى الاخص فانه كفر بل يقال اطلعوا على الغيب . اذن فيكون علم الغيب قسمين .

فمنه ما هو عين واجب الوجود بحيث لا يكون صادراً عن علة غير فاطر السموات والارض .

ومنه ما كان صادراً عن علة ومتوقفاً على وجود الفيض الآلهي ، وهذا هو ما كان عند الانبياء والاولياء .

اما الاسم المخزون : فقد قال العلامة المعاصر انه قد يطلق ويراد به الالفاظ التي تحكي عن المسمى كما هو المشهور عند الناس ، وان الله تعالى بهذا المعنى اسماء ندعوه بها مثل لفظ الجلالة ولفظ الرحمن والرحيم ولفظ عالم وقادر وغيرها وكما نقول ، اللهم اني اسئلك باسمك العظيم الاعظم، وقد يراد من الاسم هنا نفس الصفات وحينئذ تكون الالفاظ اسم الاسم ، فصفاته تعالى بل ونفس انبيائه واوليائه اسماؤه وكلماته كما ورد (نحن الكلمات التامات) وكما في قوله تعالى (وعلم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني باسماء هؤلاء) وقد فسروا

الاسماء هنا بالانبياء . وعلى كل فان لله اسماً مخزوناً عنده لا يعلمه الا هو ، ويحتمل ان يكون المراد منه هو الاسم المخزون عند انبيائه واوليـــائه قد علمه اياهم اذا دعوا به استجيب لهم كما وردفي بعض الادعية (وباسمـــك الذي دعا به موسى بن عمران عليه السلام وباسمك الذي ناجى به ايوب عليه السلام) فالمراد من الاسم على هذا الاحتمال اعم من الالفاظ .

اما العلم المكنون : فيحتمل ان يراد منه العلم بالذات والصفات على ما هي عليه فكما ان العلم بالذات فى مرتبة الغيب المطلق لا يمكن ان يطلع عليه أحـــد كذلك العلم بالذات مع الصفات على ما هي عليه مكنون ومخفى لا يمكن لاحد ان يطلع عليه .

ومما لا شك فيه ولا ريب ان الله تعالى عالم بالاشياء كلياتها وجزئياتها علويها وسفليها ظاهرها وباطنها علماً شاملا . لا كعلم المخلوق الذي هو عبارة عن حصول صورة الشيء في الذهن او المعنى فى الخيال ، فقد جل وعلا عن ذلك كله

وليست الضرورة داعية لنا ان ندرك كيفية هذا العلم ، ولا يجب علينا ذلك لا عقلا ولا نقلا . لانه يستحيل ان يدرك المصنوع كنه الصانع لتغايرهما فى كل شيء البته .

الصلاة على النبي ﷺ

قال عليه السلام: وصلواته وبركاته على مبلغ وحيه ومؤدي رسالته الذي بعثه بشيراً ونذيراً وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

الصلوات جمع صلاة وهي من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار ومن الآدميين الدعاء، والمراد من الصلاة على رسوله محمد (ص) هو تعظيمه في الدنيا واعلاء كلمته وابقاء شريعته وفي الآخرة تضعيف مثوبته والزيادة في رفع درجته وقد امرنا الله بالصلاة على النبي (ص).

بقوله (ان الله وملائكته يصلون على النبي يا ايها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما).

وقيل ان الغاية من الصلاة على النبي (ص) انما تعود الى المصلي نفسه لان الله تعالى قد اعطى نبيه من علو الدرجة في الآخرة ما لا يؤثر فيه صلاة مصل او دعاء داع.

ومن فوائد الصلاة على النبي (ص) ان دعاء العبد اذا اقترن بها حصل للعبد امران اولهما ان النبي وآله هم الوسائط بين الله وعباده في قضاء حوائجهم فلابد اذن من التوسل بذكرهم وثانيهما ان الصلاة والدعاء يعرضان مجموعاً على

الله تعالى وحيث ان الصلاة لا تحجب فالدعاء ايضا لا يحجب ، والله اكرم من ان يقبل الصلاة ولا يقبل الدعاء المقترن بها فلا بد ان يقبل كله وهو المطلوب .

اما البركات فهي جمع بركة ومعناها الخير والقدسية والطهر والكرم واتساع الرحمة وكثرة النعمة .

اما التبليغ فهو الايصال كقوله تعالى (يا ايها الرسول بلغ) اي اوصل الى الناس ما انزل اليك من ربك ، وقد يراد منه الانتهاء الى اقصى الحقيقة كالبلوغ ومنها اشتق لفظ البلاغة .

والوحي هو الالهام والقذف في القلوب (وأوحى ربك الى النحل) وقد يطلق على الوسوسة (وان الشياطين ليوحون الى اوليائهم) اي يوسوسون ، وفي القاموس : الوحي هو الاشارة والرسالة والالهام والكلام الخفي ، وقد غلب استعماله فيما يلقى على الانبياء من الله .

وقيل الالهام ما يلقى في القلب بطريق الفيض ، فما كان من عمل الخير فهو الهام وما كان من عمل الشر فهو وسوسه ومن الخوف انحاش ، ومن تقدير نيل الخير فامل ، ومما لا هو للانسان ولا عليه فخاطر والفرق بين الوحي والالهام هو ان الالهام ما يحصل من الحق بلا واسطة ملك والوحي يكون بواسطة ملك والالهام من خواص الولاية والوحي من خواص الرسالة ، والوحي مشروط بالتبليغ ولا كذلك الالهام .

اما البشير فهو المبالغ بالبشارة التي هي الاخبار بما يسر ويفرح المخبر به .

والنذير هو المحذر والمخوف من عواقب المخالفة والعصيان لا سيما من الله تعالى لان الانذار هو الابلاغ ولا يكون الابلاغ الا في التخويف (وانذرهم

. . . . . .

يوم الآزفة) .

ثم قال عليه السلام : وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً . اي داعياً الى توحيده ودينه عن أمره وارادته .

والسراج هو المصباح الثاقب المضيء ، وقد يعبر به عن القوة العاقلة والحركات الفكرية الشبيهة بالمصباح كما يقال (اضاء مصباح الهدى) والمراد هنا ان النبي (ص) هو الهادي الخلق عن ظلمة الشرك الى نور التوحيد والايمان والهدى فانه (ص) لما كان الهادي الى الخير وطريق الحق وما ينفع الناس كان كالسراج المنير للناظرين اليه ثم استشهد بقوله تعالى (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة) قاصداً بذلك ان الله تعالى انما بعث نبيه الكريم مبلغاً وحيه ومؤدياً رسالته ومبشراً بالثواب ومنذراً بالعقاب داعياً الى الله هادياً له لتكون لله الحجة البالغة على الخلق فيهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة بعد قيام الحجة بما يريه من المعاجز والبر الدالة على توحيده فيكون الجزاء والمكافاة بعد الموت عدلا لا ظلم فيه وعن استحقاق لا حجة للعبد فيه على الله تعالى .

وقيل معناه ليهلك من ضل بعد قيام الحجة لان حياة الكافر وبقاءه هلاك له ، وليحيى من اهتدى بعد قيام الحجة فيكون بقاؤه بعد ايمانه وتصديقه حياة له .

ومعنى البينة هو البيان وظهور الامر واضحاً جلياً .

الصلاة على آل النبي ﷺ

قال عليه السلام : فعليه وعلى آله من بارئه الصلوات الطيبات والتحيات الزاكيات الناميات وعليه وعليهم السلام والرحمة والبركات في الماضين والغابرين ابدالآبدين ودهر الداهرين وهم اهله ومستحقوه

الآل هم العترة وعترة الرجل نسله ورهطه الادنون ، اما عترة النبي (ص) وآله فهم كما وردت الاخبار الصريحة الصحيحة المتفق عليها ، علي وفاطمة والحسن والحسين والائمة التسعة من ولد الحسين عليهم السلام ، وهم الذين لا يفارقون القرآن كتاب الله ولا يفارقهم حتى يردوا معه الحوض .

وهنا كرر الامام عليه السلام الصلاة على النبي (ص) مشفوعة بالصلاة على آله لكيلا تكون بتراء مقطوعة والمراد بالطيبات هو الكلمات المحبوبة لاشتمالها على التقديس وحسن الثناء على الله تعالى اما التحيات فهي جمع تحية ، والتحية هي طلب حياة المحيى من عند الله تعالى ثم وصفها بالزاكيات الناميات لانها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله الخير والبركة وطلب الرزق ويطلب نماؤها وزيادتها ومعناهما الطاهرات الناميات بالبركة والخير .

ثم اراد الامام عليه السلام الزيادة في الثناء والدعاء للنبي (ص) وآله فقال (وعليه وعليهم السلام الخ) ومعنى السلام هنا الدعاء اي سلمتم من المكاره وقيل

معنى عليه وعليهم السلام هو اسم الله عليهم اي انهم في حفظه وكنفه ، وقيل هو دعاء لهم بالسلامة من آفات الدنيا وعذاب الآخرة او كليهما .

وقد وضع الشارع المقدس كلمة السلام موضع التحية ، لما في هذه الكلمة من المعاني السليمة ، او انها مطابقة للسلام الذي هو اسم من اسماء الله تعالى تيمناً وتبركاً .

اما الرحمة فهي لغة رقة القلوب وانعطاف يقتضي التفضل والاحسان ، ومنه (الرحم) لانعطافه على ما فيه من جنين .

والمراد منها هنا التفضل وضروب الاحسان ، وبعبارة اخرى هي التخلص من اقسام الآفات وارسال الخيرات الى ارباب الحاجات .

والرحمة ايضا معنى آخر هو بسط الرزق وعدم انقطاع مواده عن كل مخلوق وهو ما به قوام وجوده وكماله اللائق به ، فرزق البدن ما به نشوه ونموه وكماله ورزق الحس ادراكه المحسوسات ورزق الوهم المعاني الجزئية ، ورزق العقل المعاني الكلية والعلوم الحقة والمعارف المبدئية والمعادية ورزق الخيال ادراك الخيالات من الصور والاشباح المجردة عن المادة وهكذا رزق كل بحسبه كما ان افاضة الوجود على كل موجود رزق ايضاً ، وكل هذه من رحمة الله الواسعة التي هي صفة الرحمن .

اما رحمته القريبة من المحسنين فهي المراتب العالية والدرجات الرفيعة والكرامات الوافرة والنعم الجزيلة .

ثم قال عليه السلام : في الماضين الغابرين ابد الآبدين ودهر الداهرين ، اي ان هذا الثناء والصلاة والدعاء التي يرجو المصلي ان تصل إلى النبي (ص)

وآله الماضين منهم والباقين ، يريدها ان تكون دائمة مستمرة لهم دوام المدد الى آخر الازمنة وطوال الدهر الذي ليس له حد وهما اى ابد الآبدين ودهـــر الداهرين كلمتان يستعملها العرب بهذا المعنى دون نظر الى اشتقاق او تعليل لغوى ، فقد وردتنا هكذا واستعملتا هكذا واللغات سماعية .

ثم قال عليه السلام : وهم اهـــله ومستحقوه ، اي ان النبي (ص) وآله عليهم السلام هم اهل لهذا الثنـاء والدعاء وجديرون به ومستحقون له ، ذلك لانهم ادلاء الخلق الى الخير وهداتهم الى توحيده ومرشدوهم الى صالحهـــم الدنيوى والاخروى بامره وارادته ، وهم العاملون على بث الدعوة الاسلامية وعبادة رب البرية .

اذن فيكونون هم اهلا للصلوات ولكل خير يطلب ، لان الله هو الذى اختارهم لشرعه واصطفاهم لدينه وارساخ قواعد توحيده ، فهم على هذا مستحقون للثناء والمدح ، ولان يكونوا خير واسطة بين الخالق والمخلوق صلوات الله عليهم اجمعين .

مختصر أمالي الإمام في الأيام الثلاثة

قال الامام عليه السلام : قد شرحت لك يامفضل من الادلة على الخلق والشواهد على صواب التدبير والعمد في الانسان والحيوان والنبات والشجر وغير ذلك ما فيه عبرة لمن اعتبر وانا أشرح لك الان

لقد مر عليك في الاجزاء الثلاثة السابقة ما ابانه الامام عليه السلام للمفضل بن عمر من الادلة والبراهين ، وما املاه عليه من الكلام الذي كان كله شواهد عدل على الخلق ودلائل قاطعة جلية على صواب التدبير والعمد اي القصد والارادة من الخالق في خلقته وصنعه .

ثم ابان بوضوح وجلاء استحالة الاهمال والمصادفة في خلق الانسان والحيوان والنبات وغيرها من العلويات كالشمس والقمر والنجوم والكواكب وما فيها ولها من نظام في الحركات واتقان في العمل وعدل في الوضع اي وضع كل شيء في موضعه بحكمة وحكمة وبارادة مقصودة شاءها البارى الحكيم العليم

وفي كل ما ذكر وغيره عبر لمن يعتبر بها مفكراً متأملا ، وعظات لمن يتعظ وينظر بعين البصيرة وعقل سليم على ان معرفته تعالى والاقرار بواحدانيته لا يحتاج الى دليل ، لان

في كل شيء له آية تدل على انه واحد

ثم قال عليه السلام : وانا اشرح لك الان الافات الحادثة الخ .

اقول : لقد سبق للامام عليه السلام ان ذكر هؤلاء الجهال وجحودهم الخالق والخلقة واوضح انكارهم القصد والتدبير وسماهم الشكاك ، فقال :

ان الشكاك جهلوا الاسباب والمعاني في الخلقة وقصرت افهامهم عن تأمل الصواب والحكمة فيما ذرأ الباري وبرأ من صنوف خلقه في البر والبحر والسهل والوعر فخرجوا بقصر عقولهم الى الجحـــود وبضعف بصائرهم الى التكذيب والعنود حتى انكروا خلق الاشياء وادعوا ان تكونها بالاهمال لا صنعه فيها ولا حكمة ولا تقدير من صانع مدبر ولا تدبير من خالق مقدر الى آخر ما فصله في الجزء الاول من هذا الكتاب .

وهنا يعيد الكرة عليهم فيقول عليه السلام : ان من جملة ما جعلوه هؤلاء الجهال الشكاك ذريعة واتخذوه وسيلة وسبباً لانكارهم الوحدانية وابطالهم العمد والتدبير والقصد في خلق العالم ، هو حدوث بعض الافات والحوادث المزعجة المقلقة للناس عند حدوثها في بعض الازمنة ، كالامراض الوبائية والزوابع القوية والعواصف الشديدة والخسوف والكسوف والزلازل الموجبة لخوف النـــاس وتخريب بعض الامكنة .

فانهم لما لم يفكروا في حكمتها ولم يدركوا فوائدها ولم ينظروا الى ماتنتج من مصالح دنيوية ومكافاة اخروية ، جحدوا خالقها دون تروٍ وتعقل لجهلهم وعنادهم وسوف نفصل لك ذلك في الفصول القادمة انشاء الله تعالى .

المعطلة والمنانية وأصحاب الطبايع

قال عليه السلام: وما انكرت المعطلة والمنانية من المكاره والمصائب وما انكروه من الموت والفناء وما قاله اصحاب الطبائع ومن زعم ان كون الاشياء بالعرض والاتفاق ليتسع لك ذلك القول في الرد عليهم قاتلهم الله انى يؤفكون .

ذكر الامام عليه السلام هنا بعض اصناف الملاحدة الذين انكروا الخلق والحدوا بالخالق ، ونحن نرى من المناسب ان نبين اولا وقبل ذكر الاصناف منشأ حدوث الالحاد وكيفية حدوثه على الاجمال ملخصاً من مقال الاستاذ المرحوم محمد فريد وجدى :

من البديهى المسلم ان الإنسان بحكم تركيبه المعنوى لا يستطيع ان يقف جامداً امام اي مجهول كان بل هو مضطر الى معرفة كل ما يؤثر في حسه اوعقله والى تعليله على قدر ما تسمح له وسائله ومدركاته .

وانه عندما قذف الى هذا العالم وادرك ما فيه ونظر الى السماء والأرض وتأمل حوادثها معملا كل خصائصه العقلية آب بمدركات تناسب حالته في السذاجة ، فنسب جميع الحوادث فيها الى علل روحيه لم تدرك بالبصر ولكنه مع ذلك لم يقف فى تفكره بل بقى يسرى نحو الحقيقة حتى اهتدى الى كثير

من العلل الطبيعية المباشرة ، فكان كل ما ادرك علة طبيعية ربط بها معلولهـا ورفع العلة الروحية مع الاحتفاظ بها كعلة اولية .

ولما نشأت الفلسفة كانت العلوم قد كشفت كثيراً من العلل الطبيعية، ولكن الانسان هنا ايضا لم يقف في تفكيره بل سار في تأملاته غير مقتنع بان تكون العلة الروحية الاولية ذاتاً ازلية ابدية واجبة الوجود عالمة بكل شيء قادرة على كل شيء ، فكان يفكر ويتأمل ، وكل ما اصطدم بهذه المسألة استعصى عليه تحليلها وامتنعت لديه عن الانطباق على دستوره الفطري والفكري حتى كان يبدو عليه العجز عن الوصول الى الحقيقة .

وهذا ما اضطره الى اعتبار كل ما لا ينطبق على دستوره باطلا ، فيندفع للبحث عن غيره مما ينطبق على دستوره وبسايره .

ومن هنا نشأت فلسفة (اللاادرية) التي كان عميدها الفيلسوف (بيرهون) في القرن الرابع قبل الميلاد ، ومؤداها الامتناع عن الحكم على الاشياء اذ لا يمكن ان يتعرف على حقيقتها بهذا العقل الناقص المحدود وبقيت هذه الفلسفة حتى ظهور المسيحية ، ثم اعقبها الاسلام ، فخضع العقل للدين مدة طويلة ولكنه لما كان لا يصبر على الجهل بعلل الاشياء ومعرفة اصولها جعل يتخبط في دياجير الاراء والافكار.

فقال بالمادة والقوة الملازمة لها وإرجع كل شيء في اصله اليهـا زاعماً ان المادة هي التي تؤلف ظواهر الأشياء والقوة تعمل فيها وتذهب في ابداعها كل مذهب ، ومن هذا الرأي استنتجت إن ليس من حاجة الى خالق يضع اصول الطبيعة ولا الى عقل اولى يدبر نظام الكائنات .

وكان اول قائل بهذا قبل داروين هو (بوخنر) الالماني الذي كان يقول

ان الذين يقولون بوجود قوة خالقة خارجة عن المادة وفوق الطبيعة هي التي خلقت العالم من ذاتها او من العدم يناقضون الاصول الاساسية للعلم الطبيعي المؤسس على التجربة والواقع ، فانهم لم يسلموا بوجودها الا بتأثير الاوهـــام والجهالات التي كانت سائدة في العصور المظلمة القديمة ولكن العلم لا يقبل مثل هذا الرأي اليوم .

ونحن نقول له: ماهي هذه المادة؟ فيقول هي الشيء الذي يجذب ويدفع ويقاوم ويتحرك وينتج ظواهر النور والحرارة .

فنقول له : اهل يعقل خروج الابداع مما لا ندري وهل تبرز الحياة من الجماد الميت .

فيقول : انا اجهل اصل المادة ولكن كل اعمالها طبيعية محضة ، وهكـــذا يخبط بالقول ويعمل رجوع الاشياء كلها إلى المادة بما لا يقبله كل عقل سليم .

ومن هنا ظهر المذهب المادي الملحد المارق عن كل دين والذي كان عميده المتأخر الفاشل (داروين) مع اصحابه الجهال .

اما الطبيعيون فهم الذين يسندون خلق هذا العالم الى الطبيعة الكونية زاعمين ان الكون كله مقاد بنواميس طبيعية ثابتة لا تتحول بل تخضع لها جميع الكائنات وعنها حدث هذا العالم ، وقد سموا هذه النواميس (النواميس الطبيعية) .

ولابطال هذا المذهب نقول : ان هذه الطبيعة لا تخلو اما ان تكون قديمة او حادثة ، فان كانت قديمة وجب ان يكون العالم كله قديماً بقدمها ، وان كانت حادثة فكيف يكون الحادث سبباً للحادث اي كيف يعطي الشيء ما هو مفتقر فيه الى محدث آخر .

ثم ان كانت هذه الطبيعة شيئاً حياً عالماً قادراً وانها تفعل بالقدرة والاختيار فقد اعترفوا بالصانع تعالى وافروا بالحق من حيث لا يشعرون، وكانت اقوالهم هذه كلها خرافة .

اما الدهريون وهم القائلون بقدم الدهر وقدم العالم زاعمين ان الدهر هو المدبر للعالم والمؤثر فيه فهو لا يبلى ولن يبلى ، وانه لم يبل شيء الا اورث الدهر آخر مكانه .

اما المعطلة : فهم الذين يزعمون ان الاشياء كلها كائنة من غير تكوين لا صانع لها ولا مدبر ، وان هذا الخلق كالنبات في الفيافي والقفار يموت شيء منه ويحيى شيء وينبت شيء ويذبل شيء ، وهكذا كان ويكون .

ومنهم من يقول : ان هذه الكائنات اذا تغلبت عليها الطبايع الاربع في ابدانها وهي الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة اي تغلبت احداها قتلته فيموت فاذا مات الصغير يحيى الكبير ، فهذا الانسان خلقه ابوه وان اباه ايضا خلقه ابوه وهكذا حتى آدم فان له آباء من قبل اوجدوه ولا آدم يعترفون به .

ورد هذا الزعم السخيف ، ان الطبائع كما هو مسلم اعراض محدثة متضادة عارضة على الاجسام جارية مجرى الحركات والالوان وسائر الاعراض الاخرى فيستحيل ان تكون قديمة وان تتركب منها الاجسام سيما وهي متضادة لا يمكن ان تجتمع معاً ليحدث منها الاجسام .

واخيراً صار الملحدون ثلاثة اصناف :

(١) منكروا الخالق والبعث .

(٢) منكروا البعث .

(٣) منكروا الرسل عباد الاصنام .

اما الصنف الاول فيدخل تحته الدهريون الذين يقول عنهم القرآن الكريم (وما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيى وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون) .

اما الصنف الثاني فقد رد عليهم القرآن ايضا بقوله (افعيينا بالخلق الاول بل هم في لبس من خلق جديد) وقوله تعالى :(قل يحييها الذي انشأها اول مرة)

اما الصنف الثالث الذي انكر الرسل وعبد الاصنام فقد زعموا ان الاصنام شفعاؤهم عند الله في الاخرة ، وقد ذكر القرآن قولهم هـذا بقوله (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق) وقوله تعالى (وما ارسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق) .

ومن الملاحدة المعطلة المبتدعة هم المانية او المانوية او المانية اتباع (مـاني بن فاتك) وقيل (ماني بن فتق بابك بن ابي رزام) واسمه (ميس) او (مريم) وقد كان احنف الرجل ، اصل ابيه من همدان انتقل الى بابل وكان ينزل المدائن في موضع يكون فيه بيت الاصنام .

وفي يوم من الايام (على زعم اصحابه) هتف بابي ماني هاتف قائلا : يافتق لا تأكل اللحم ولا تشرب الخمر ولا تنكح بشراً ثم تكرر عليه ذلك دفعات في ثلاثة ايام ، فلما رأى فتق ذلك وسمعه لحق بقوم كانوا يوحى (دستميسان) يعرفون (بالمغتسلة) وكانت ام ماني حاملة به وزعموا ان امه لما ولدته كانت ترى منامات حسنة كما كانوا ينسبون اليه التكلم بالحكمة على صغر سنه . ولما تم له اثنتا عشرة سنة اتاه الوحي بواسطة ملك اسمه (التوم) وقد

كان ظهوره ايام الملك (شابور بن اردشير) واما الذى قتله هو الملك (بهرام بن هرمز بن شابور) بعد ظهور عيسى عليه السلام وكان قد احدث ديناً مركباً من المجوسية والنصرانية فهو يقول بنبوة عيسى عليه السلام وينكر موسى عليه السلام .

وكان يزعم ان العالم مصنوع مركب من اصلين قديمين هما خلقاه وهما النور والظلمة فانهما ازليان لم يزالا ولن يزالا قويان حساسان دراكان سميعان بصيران ، وان كل واحد منهما منفصل عن الآخر ، فالنور هو العظيم الاول ليس بعدد والظلمة هى الكون الآخر ولا حاجز بينهما .

وكان مانى قد اقام قبل قتله والتنكيل به وباصحابه خليفة له هو (سيس) وجعله اماماً بعده .

وهكذا بقيت الامامة يتناولونها ائمة منهم حتى ايام النبي (ص) وبعده وكان من اشهر رؤساء مذهبه بعده في اواخر دولة بنى امية واول دولة بنى العباس ، اى فى زمن الصادق عليه السلام جماعة امثال :

(١) جعد بن درهم الذي ينسب اليه مروان بن محمد ويقال له (مروان الجعدى) اذ كان جعد مربيه ومؤدب ولده حتى ادخله في الزندقة ، وقد قتله هشام بن عبد الملك بعد حبسه .

(٢) ابو طالوت (٣) ابو شاكر (٤) ابن الجريزى (٥) نعمان بن ابي العوجاء (٦) صالح بن عبد القدوس ولهؤلاء كتب مصنفة في نصرة الثنوية ومذاهب اهلها (٧) ابو يحيى الرئيس (٨) ابو علي سعيد (٩) ابو علي رجا (١٠) يزدان بخت وغيرهم .

وبودي هنا ان اذكر كلام النبي صلى الله عليه وآله في احتجاجه مع المنانية حين اجتمع اهل الاديان المختلفة عنده ليحاجوه ويغلجوه في رأيهم فرد (ص) اهل كل دين بما فند حججهم ثم التفت الى الوفد المنافي (المانوي) وقال (ص) مخاطباً لهم .

ما الذي دعاكم الى ما قلتموه من هذا ؟ قالوا : لانا وجدنا العالم صنفين خيراً وشريراً ووجدنا الخير ضد الشر فاما ان يكون فاعل واحد بفعل الشيء وضده فلا يمكن، بل لكل واحد منهما فاعل .

الا ترى ان الثلج محال ان يسخن ، كما ان النار محال ان تبرد ، فاثبتنا لذلك صانعين قديمين ظلمة ونوراً .

فقال لهم رسول الله (ص) : السّم وجدتم سواداً وبياضاً وحمرة وصفرة وخضرة وزرقة ؟

وكل واحد ضد لسائرها ، لاستحالة اجتماع اثنين منها في محل واحد ، كما كان الحر والبرد ضدين لاستحالة إجتماعهما معاً في محل واحد ؟

قالوا نعم ، قال (ص). فهلا اثبتم بعدد كل لون صانعاً قديماً ليكون فاعلا لكل ضد من هذه الالوان غير فاعل للضد الاخر . فسكتوا .

ثم قال (ص) : وكيف اختلط هذا النور والظلمة ، وهذا من طبعه الصعود وهذا من طبعه النزول .

ارأيتم لو ان رجلا اخذ شرقاً يمشي اليه والاخر غرباً بضده ، اكان يجوز ان يلتقيا ماداما سائرين على جهتيهما ؟ قالوا لا .

قال (ص) فوجب ان لا يختلط النور مع الظلمة لذهاب كل واحد منهما

في غير جهة الاخر فكيف حدث هذا العالم من امتزاج ما يحال ان يمتزج ، بل هما جميعاً مخلوقان .

فقالوا : اجل سننظر في امرنا ولم يجيبوا بل افلجوا وقاموا من المجلس خالبين .

هذه الفرق التي ذكرناها لك والتي اشار اليها الامام عليه السلام هي من اشهر فرق الملاحدة واظهر اصنافها .

وهناك غيرها كثير مثل الديصانية والمزدكية والمرقونية والنظامية والجبائية واشباهها مما تفصله كتب الملل والنحل .

وليس في ذكرها فائدة يعتد بها على ان هذا المختصر لا يسع بيانها .

وقد جمع اكثرها الامام عليه السلام بقوله ما انكرت المعطلة والمنانيه الخ .

ذريعة الجهال الى جحودهم

قال عليه السلام : اتخذ اناس من الجهال هذه الآفات الحادثة في بعض الازمان كمثل الوباء والبرقان والبرد والجراد ذريعة الى جحود الخالق والتدبير فى الخلقة ، فيقال في جواب ذلك انه ان لم يكن خالق

قبل الشروع فى الموضوع علينا ان نذكر معنى بعض الكلمات في هذه العبارة ليتسنى لنا معرفة مراد الامام عليه السلام منها ثم ندخل في صلب الموضوع فنقول :

الجهال جمع جاهل ، والجهل هو خلو النفس عن العلم واذعانها لما هوخلاف الواقع دون ادراك وهي صفة تحصل لبعض افراد البشر تخرجه عن دائرة الانسانية وتدخله فى زمرة البهائم والانعام .

قال تعالى : (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ـ (ام تحسب ان اكثرهم يسمعون او يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا) ـ (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام بل هم اضل واولئك هم الغافلون) .

والسر فى ذلك ان هذا الجاهل مع قصور عقله عن هذا الاعتقاد الفاسد فانه لا ينتبه للنقص الذي فيه فلا يتحرك لطلب الحقيقة فلا يرشد بل يبقى في

ومدبر فلم لا يكون ماهو اكثر من هذا وافظع فمن ذلك ان تسقط السماء على الارض وتهوى الارض فتذهب سفلا وتتخلف الشمس عن الطلوع اصلا وتجف الانهار والعيون حتى لا يوجد ماء للشفه ويركد الريح

الضلالة والغي فهو كالبهيمة والنعم لا يدرك شيئاً بل هو اضل منها لان الانعام والبهائم لابد ان تهتدي إلى صالحها الخاص في حياتها الحيوانية بمقدار ادراكها المحدود .

اما الانسان فليس كذلك لان الله تعالى قد اودع فيه العقل والادراك وكل مؤهلات الانسانية غير ان الجاهل لا يستعملها فكان اضل منها سبيلا .

ثم ان من الجهل الشك في الامور الحيوية بلا دليل ولا برهان ولاجله كان الامام عليه السلام يعبر في بعض امالية عن الجهال بالشكاك لعجزهم عن تحقيق الحق وابطال الباطل في المطالب الخفية .

قال امير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه : (لا ترتابوا فتشكوا ولا تشكوا فتكفروا) .

ومعلوم ان مراده بقوله ـ لا تشكوا فتكفروا هو الشك المنجر الى الجحود عن جهل .

اما الآفة هنا فهي العاهة او المصيبة او البلايا الحادثة الواردة على الانسان اما من الخارج كالوباء والبرقان والبرد والحر والجراد ، او من الداخل كبعض الامراض والمصائب الداخليه في المال والولد واشباه ذلك .

يقول الامام عليه السلام : ان هؤلاء الجهال الشكاك وهم كما عرفت من نقصان العقل والجهل بالامور نظروا الى هذه الحوادث في العالم فلم يدركوا

حتى تعم الاشياء وتفسد . ويفيض ماء البحر على الارض فيغرقها ثم هذه الافات التي ذكرناها من الوباء والجراد وما اشبهه . ما بالها لا تدوم وتمتد حتى تجتاح كل ما في العالم بل تحدث في الاحايين ثم

الحكمة في وقوعها ولم يعرفوا السر في حدوثها فظنوا ان ذلك لا يقع من خالق مدبر رؤف بعباده ، وان وقوع الوباء العام مثلا الذي يتلف الكثير من الناس والبرقان المهلك المضني ومثل البرد الذي يتلف الزروع وقد يقتل بعض النفوس ويخرب بعض الاماكن و ناهيك بالجراد الذي يهلك الحرث والزرع فيجوع بسببه آلاف من الزارعين الى غيرها من الحوادث في العالم .

ان هذه وامثالها جعلها هؤلاء الجهل ذريعة لجحود الخالق وانكار التدبير والتقدير في الخلقة زاعمين انه لو كان خالق مدبر لم تحدث امثال هذه الآفات وان حدوثها هكذا دليل على عدم وجود مكون للعالم .

هذا كل ما لديهم من الادلة على اعتقادهم الفاسد ، وهو بعينه دليل على جهلهم بالحقيقة وبعدهم عن الواقع عقلا ووجدانا .

لذلك ترى الامام عليه السلام قد اجابهم بابسط الاجوبة حسب مداركهم الضعيفة قائلا : اذا لم يكن خالق ولم يكن تدبير من مقدر فلم لا يكون الامر الحادث والافات الواردة اكثر مما ذكروا واعظم مما استندوا عليه .

فمثلا لماذا لا تسقط السماء على الارض على انها مرفوعة بلا عمد ترونها ، ولم لا تهوي الارض فتذهب سفلا على انها غير مرتكزة على عماد او سند ، ولم لا تتخلف الشمس عن طلوعها اوغروبها ، بل هي طوال القرون والاحقاب تراها الاجيال المتعاقبة سائرة في فلكها بكل انتظام تجري لمستقر لها لا تحيد عنه

لا تلبث ان ترفع . افلا نرى ان العالم يصان ويحفظ من تلك الاحداث الجليلة التي لو حدث عليه شيء منها كان فيه بوارده ويلذع احيانا بهذه الافات اليسيرة لتأديب الناس وتقويمهم ثم لا تدوم هذه الافات بل تكشف

ولا تزل وتنحرف بل هي كذلك الى الابد والى يوم القيامة اذا الشمس كورت .

فهل تتصور لو تأملت ان كل ذلك يكون هملا دون تقدير العزيز العليم ثم لماذا لا تجف الانهار والعيون التي هي منبع الانهار فينعدم الماء من على وجه الارض فلا يوجد منه قطرة تبل الشفه .

ولماذا يتحرك هذا الريح في العالم على الدوام ولا يركد لتخم الاشياء وتفسد بركوده ووقوفه ثم ان هذه البحار التي هي على ثلاثة ارباع سطح الكرة لماذا لا تفيض على الارض فتغمرها بالمياه وتغرقها كلها تماما .

اليس كل ذلك من تدبير وحكمة وتقدير واتقان في الصنع والخلقة ؟ بل لو انصف المتأمل وتنبه الغافل لعلم ان ذلك واكثر منه برهان ساطع على وجود الخالق القدير الحكيم .

وان جميع ما يحدث في العالم هو آيات بينات تدل على وجود الصانع العليم

ثم قال عليه السلام في الجواب: ثم ان هذه الافات التي ذكرناها من الوباء والجراد وامثالها .

لماذا لا تدوم ويمتد زمانها ويطول امدها الى ان تجتاح كل ما في العالم من حيوان ونبات وحتى الجماد ايضا لكي لا تبقى مما على وجه الارض شيئا الا اتلفته ما دام الامر كما تزعمون بان الافات والحوادث التي تحدث في العالم غير صادرة عن خالق ولا من تدبير وحكمة وها نحن نراها تحدث احيانا وترتفع

بحيث لم يبق لها اثر ولا عين البته .

فلينظر المتأمل ، ولينتبه الشك الغافل لبرى العالم كيف كان يعان من اضرارها بحكمة وتدبير ، وكيف كان يحفظ بابداع واتقان فلو دامت تلك الحوادث ولم ترفع لكان فيها بواره وانعدامه ، فظهر من هذا النظام وبان من هذا الاتقان ان حدوثها احيانا حتى تلذع الاجسام والنفوس ثم زوالها وعدم دوامها وانكشافها عند اليأس والقنوط لدليل على ان كل ذلك لم يكن الا عن قصد وارادة وغرض مطلوب مراد ، شاء خالقها واقتضت حكمته ان يحدثها تاديباً للناس وارشاداً لهم نحو صالحهم وتقويماً لاعوجاجهم وانحرافهم عن الصواب .

فيكون على هذا حدوثها عظة وعبرة وكشفها صلاح ورحمة .

فيالله من خالق قادر عليم حكيم ابدع خلقه واحكم صنعه ورحم عباده على جهلهم ودبرهم على الخادم بتقديره وحكمته فسبحانه .

الصنف الثاني من الجهال

قال (ع): وقد انكرت المعطلة والمانية من المكاره والمصائب التي تصيب الناس فكلاهما يقول: ان كان للعالم خالق رؤف رحيم فلم يحدث فيه هذه الامور المكروهة. والقائل بهذا القول يذهب الى انه ينبغي ان يكون عيش الانسان في هذه الدنيا صافياً من كل كدر. ولو كان هكذا كان الانسان يخرج من الاشر والعتو الى مالا يصلح في دين ودنيا

اتفق جمهور العقلاء ولم يختلف منهم اثنان على انه تعالى عالم على الاطلاق ولهم على ذلك أكثر من دليل غير ان اوضحها وامتنها ما قاله الصدوق (ره) في توحيده.

ان الافعال المختلفة التقدير المتضادة التدبير المتفاوتة الصنعة، لا تقع على ما ينبغي ان يكون عليه من الحكمة ممن لآ يعلمها، ولا تستمر على منهاج منتظم ممن يجهلها.

الا ترى الصانع والكاتب مثلا لا يحكمان الصناعة والكتابة ما لم يعرفا نفس الصنعة والصفة والعالم الطف صنعة وابدع تقديرا فكيف لا يكون خالقه عالماً وصانعه حكيما، فانه تعالى لم يخلق هذا العالم الا بعلم وحكمة ولم يقدره ويدبره الا لغاية هي المخلوق لا لنفسه، وهو (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون).

كالذي ترى كثيراً من المترفين ومن نشأ في الجدة والامن يخرجون اليه ، حتى ان احدهم ينسى انه بشر وانه مربوب او ان ضرراً يمسه او ان مكروهاً ينزل به او انه يجب عليه ان يرحم ضعيفا او يواسي فقيرا

وعلى هذا اجمع المسلمون كافة على انه لا يجوز ان يقال لله تعالى ، لم فعلت ابداً ثم اختلفوا في سبب عدم جواز السؤال .

فذهبت الاشاعرة الى ان افعاله تعالى لا تعلل بالاغراض والمصالح ، وله بحكم المالكية ان يفعل في مخلوقاته ما يشاء .

وقد رد هذا القول بان نفي الغرض يستلزم العبث ، والعبث محال على الله تعالى .

وقالت الامامية والمعتزلة : انه تعالى عالم بقبح القبائح غني عن فعلها ، والقبيح لا يصدر الا عن جاهل بالقبح او محتاج الى فعله على قبحه ، وان الله العالم بما كان وما يكون من حسن وقبيح والغني عن المصالح والمنافع والاضرار لنفسه يجب عليه ان لا يفعل الا عن حكمة وان لا يحدث الا الصواب فاذا عرف المكلف او اي انسان عاقل مدرك ولو معرفة اجمالية بان كل ما يفعله الصانع تعالى لم يكن الا عن قصد وتدبير وحكمة .

وجب عليه ان يسكت عن استفهام السبب واستعلام العلة لأن العقول مهما ارتقت وارتفعت فهي محدودة ، وان ما يفعله الصانع محال ان يدركه المصنوع ولكن هذان الصنفان اعني الجهال من الناس واخوانهم المنانية لما لم يدركوا اسباب الحوادث ولم يعوا الحكمة في وقوع هذه المكاره والمصائب في العالم اتخذوها عن جهل وغرور ذريعة وسبباً لجحودهم الخالق وانكارهم التدبير

او يرثي لمبتلى او يتحنن على ضعيف او يتعطف على مكروب ، فاذا عضته المكاره ووجد مضضها اتعظ وابصر كثيرا مما كان يجهله وغفل عنه ورجع الى كثير ما كان يجب عليه . والمنكرون لهذه الامور المؤذية

والقصد والارادة في الخلقة وكلاهما يقول : أن كان العالم خالق رؤف رحيم فلماذا تحدث فيه هذه الامور المكروهة وعلى هذا الاساس الواهي ذهبوا إلى انه ينبغي ان يكون عيش الانسان في هذه الدنيا على الدوام صافياً من كل كدر ومكروه

وهذا بلاريب قول خال من كل تعقل وتأمل ناشيء عن جهل قائله بوجوه الحكمة وما يترتب على وقوعها من صالح الانسان في عيشه وحياته .

اذ لو تأمل لعلم انه لو كان العيش هكذا كما يريدون لاختل نظامه ولم يطب ولخرج الانسان من الاشر والعتو لترفه وبطالته وراحته الى ما لا يصلح في دين ولا في دنيا .

قال تعالى : (ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر لمجوا في طغيانهم يعمهون) وقال تعالى: (ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن) وانه ليتجلى لنا واضحاً اذا نظرنا الى حياة كثير من المترفين والناشئين في الجدة والامن ان احـــدهم لينسى انه بشر مشترك معه الناس في البشرية وانه مربوب اي مملوك لله تعالى يجب عليه الطاعة لمالكه وربه ، ولم يلتفت الى ان ضرراً يمسه بهذا الخروج عن نواميس الطبيعة الانسانية من اخوة وتعاون وعطف ورأفة ، او ان مكروها ينزل به فلا تساعده الناس لغروره وتكبره .

كما انه ينسى وهو في غمرة الترف انه يجب عليه ان يرحم الضعيف ويواسي الفقير ويرثي للمبتلى بالمرض او الفقر او فقد عزيز وامثالها او ان يتعطف على

بمنزلة الصبيان الذين يذمون الادوية المرة البشعة ويتسخطون من المنع من الاطعمة الضارة ويتكرهون الادب والعمل ويحبون ان يتفرغوا للهو والبطالة وينالوا كل مطعم ومشرب ولا يعرفون ما تؤديهم اليه البطاله من سوء النشو والعادة . وما تعقبهم الاطعمة اللذيذة الضارة من الادواء والاسقام وما لهم في الادب من الصلاح وفي الادوية من

مكروب اصابته المكاره والمصائب في حين لا مساعد له، ولكن اذا عضته المكاره ووجد مضضها واحس بالمها لابد ان يثوب الى رشده فيتعظ وتفتح عينه على الكثير مما كان يجهله او يتجاهله .

ولعله يرجع الى الانسانية التي توجب عليه الرأفة والعطف والتحنن باخوانه ومساعدة عاجزهم وفقيرهم ومواساته الى غيرها من مستلزمات الانسانية الحقة .

هذه بعض المصالح والحكم التي تدركها العقول السليمة؛ من حدوث تلك المكاره والمصائب للناس وما لا تدركه منها كثير وكثير جداً .

ثم لو لاحظنا اقوال هؤلاء المنكرين وحللنا مراعيهم الفاسدة لرأيناهم باقوالهم هذه كالصبيان الذين لا يدركون عواقب الامور ولا يميزون بين ما يضرهم وما ينفعهم فهم اذا مرضوا مثلا واحتاجوا الى الدواء تحرجوا ولم يقبلوه لانهم وجدوا فيه المرارة والبشاعة على ان فيه شفاءهم .

كما انهم لم يمتنعوا من اكل الاطعمة والاشربة التي تضرهم لانهم يرغبون اليها ، ولا يحبون الادب بل يريدون ان يتفرغوا للهو والبطالة واللعب دون ان

بشعروا بعضبة العاقبة وما يخلفه لهم سوء الاداب والتربية واعوجاج السليقة والنشو الفاسد والعادات المضرة .

او ما يعقب اكل الاطعمة والاشربة الضارة من الاسقام والامراض ، حتى يصبحوا وهم محرومون من كل ما يصلحهم ويصلح لهم فى حياتهم .

وما ذلك الا لجهلهم بمصالحهم واذعانهم لغير الواقع ، وبديهى انهم بذلك قد ظلموا انفسهم اختياراً دون اتباع فكر او عقل او روية .

(وما ظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون) .

ليس الإنسان بمعصوم

قال عليه السلام : فان قالوا : فلم لم يكن الانسان معصوماً من المساوى حتى لا يحتاج الى ان تلذعه هذه المكاره . قيل له : اذا كان يكون غير محمود على حسنة يأتيها ولا مستحقاً للثواب عليها . فان قالوا

سبق لك قريباً ان عرفت إن ورود الحوادث التى اصطلح عليها الخصم مصائب ومكاره ، لم تكن الا عبرة وعظة ، ولكى يعرف الانسان اذا لذع بها واخافته انه بشر مثل غيره من افـراد نوعه ، فلا يشمخ بانفه ولا يلوي جيده عن مساعدة اخوانه بالعطف والرحمه بل يمديد المساعده والعون للفقراء والضعفاء كما لايجور ولا يظلم حينما ينسى انـه مملوك مربوب ، فان الفـراغ والجده والبطاله لتدخل صاحبها المترف عن اداء اي واجب انساني وتهبط به الى حضيض الحيوانيه البوجاء لذلك اقتضت الحكمة الالهية ان تـرد تلك الحوادث في العالم احياناً لتلذع القلوب القاسية وتنبه العقول الغافله من بنى آدم ثم ترتفع وتعود الحال كما كانت ، ولكن تعود على اناس متعظين معتبرين بها ولو قليلا من الزمن وفى قليل من النـاس ، وبعد مده قـد تعود ايضاً لهذه الغايه وهكذا

وهنا يأتي الخصم الجاهل مرة اخرى فيقول : اذا كانت هذه الآفات إنما

وما كان يضره ان لا يكون محموداً على الحسنات مستحقاً للثواب بعد ان يصير الى غاية النعيم واللذات. قيل لهم : اعرضوا هذا على امره صحيح الجسم والعقل ان يجلس منعماً ويكفى كلما يحتاج اليه بلا سعى

تحدث العبره والعظه فلا يكون الانسان معصوماً من المساوى ومنوعاً بالخلقه والطبيعه عن ان يعمل السيئآت ، فلا يحتاج إلى مثل هذه العبر فيلذع بها التنبية ، لذلك فانا نرى إن من الحكمه والتدبير ان هذا الخالق اذا كان قادراً ورحيماً ورؤفاً بعباده إن يخلق الانسان معصوماً لا يذنب ولا يعمل السيئآت واذا كان كذلك صار بلا شك الى النعيم والثواب الجزيل

فكان جواب الامام (عليه السلام) : ان الانسان اذا خلق معصوماً فانه كما لا يذنب لا يأتي بحسنه ايضاً واذا صدر منه شيء من عمل خير او شر فهو لا من غايه ولا قصد آخر ، فكيف يستحق ثواباً على امر لم يفعله وعمل لم يأت به

ثم يقول المعترض بأن الانسان المعصوم الذي لم يحصل منه سوء بسبب عصمته لانه ممنوع عن الاتيان بها كما لم يأت بحسنه لانه مستغن عن عملها ، وعليه فما كان يضره ذلك وهو في نعيم الدنيا لاستراحته بهذه المعصوميه ، اما الآخرة فهو لابد في نعيمها لانه لم يعمل سوءاً ولاشراً .

فيجاب عن ذلك : ان الجواب عن اعترافك لايحتاج الى استدلال عقلي او تحليل او جدال غير ان نعرض هذا الامر على رجل صحيح الجسم والعقل ونقول له : انجلس منعماً مرتاحاً دون سعي او عمل طيلة عمرك ونحن نكفيك كل ما تحتاجه من مأكل ومشرب ومسكن بل وكل ما يخطر لك

ولا استحقاق وانظروا هل تقبل نفسه ذلك . بل ستجدونه بالقليل مما يناله بالسعي والحركة اشد اغتباطاً وسروراً بالكثير مما يناله بغير الاستحقاق. وكذلك نعيم الاخرة ايضا يكمل لا هله بان ينالوه بالسعي فيه والاستحقاق له . والنعمة على الانسان في هذا الباب مضاعفة. فان اعد له الثواب الجزيل على سعيه في هذه الدنيا وجعل له السبيل الى

من حاجه بشرط ان لاتفكر في اي حركه او سعي لحاجاتك وكل هذا دون عوض او اجره ولا من استحقاق منك ولا حسنه ، ثم اسأل هل يقبل او تسمح نفسه بان ينال كل ذلك دون عمل وان يحصل على كل ما يريد وهو عاطل لا يعمل ولا يتحرك .

كلا . فانك لم تجده ولن تجد امرءً يرضى بمثل هذه الحال او ان يتصور السعادة والراحة بهذا الكسل والبطالة فاذا كان هذا في الدنيا ، فكيف بنعيم الآخرة الذي يكثر بالحسنات وعمل الخير ويزداد بالسعي لها لان الآخرة هي دار التفاخر والتغابن والتفاضل واختلاف الدرجات قال تعالى :

(فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

قال الامام موسى بن جعفر عليه السلام : كما في الكافي . ان ابي قال لبعض ولده : اياك والكسل والضجر فانك ان كسلت لم تعمل وان ضجرت لم تعط الحق .

وقال بعض العلماء : ان الفراغ ليبطل الهيئة الانسانية ، فكل هيئة بل كل عضو ترك استعماله بطل .

ان ينال ذلك بسعي واستحقاق فانه يكمل له السرور والاغتباط بما يناله منه .

كالعين اذا غضت واليد اذا عطلت لذلك ترى الرياضة البدنية توصف في كل شيء بدئ طلباً للنشاط والقوة والحيوية .

والخلاصة انه استنتج مما تقدم ان العصمة للانسان وهي ملكة الامتناع عن فعل السيئات والكسل عن الاعمال دنيوية واخروية لم تكن مرغوبة ولا مستساغة للنفوس البشرية على الاطلاق اذ لم تجد كل انسان في النعيم الحاصل له دون سعي او عمل لذة او سروراً او اغتباطاً .

بل كثير من العلماء والحكماء يقول : ان الراحة لا تعرف ولا يشعر بها الانسان الا بعد التعب واللذة لا تدرك الا بعد الالم والصحة لا يحس بها الا بعد المرض . لذلك اقتضت الحكمة ان لا يكون الانسان معصوماً ليثاب بسعيه في عمل الخير واتيان الصالحات من الاعمال ويحرم النعيم باعمال السيئة والكسل والبطالة في اداء تكاليفه السماوية .

مضافاً إلى ان السعي لطلب النعيم بعمل الحسنات وتجنب السيئات فراراً من العقاب لما ينظم الحياة البشرية ويحسن المعاملات الاجتماعية ويسير بالحياة الى حيث الراحة والسعادة والهناء للفرد والمجتمع ولله في خلقه شؤن .

هل تعطى الآخرة بلا استحقاق كما تعطى الدنيا

قال عليه السلام : فان قالوا : او ليس قد يكون من الناس من يركن الى ما نال من خير وان كان لا يستحقه ، فما الحجة في منع من رضى ان ينال نعيم الاخرة على هذه الجملة ، قيل لهم : ان هذا باب لو صح للناس لخرجوا الى غاية الكلبة والضراوة على الفواحش وانتهاك المحارم فمن كان يكف نفسه من فاحشة او يتحمل المشقة في باب من ابواب

هذه اسئلة فرضية يفرضها الامام عليه السلام ليجيب عنها اذ من الممكن صدورها ولو لمجرد الانتقاد فيقول المعترض :

ان كثيراً من الناس يحيون منعمين في رفاهية من العيش وترف من الحياة قد نالوا رغباتهم كما تشتهي انفسهم في حين انهم لم يعملوا حسنة ليجازوا عليها ولم يفعلوا خيراً ليستحقوا عليه ذلك النعيم الذي ركنوا اليه .

فان كان ذلك يحصل لمن لم يعترف بنعيم الاخرة بدون استحقاق ، فما المانع من تحقق تحصيل النعيم في الآخرة ولو بدون استحقاق لمن رضى بان يحرم منه في الدنيا ليعطى في الاخرة كما اعطى هذا في الدنيا وحرم الآخرة فيقال في جوابه ، بان هذا باب لم يفتح وامر لم يتحقق مع اي فرد من افراد البشر البتة .

البر لو وثق انه صائر الى النعيم لا محالة او من كان يأمن على نفسه او اهله وماله من الناس لو لم يخف الحساب والعقاب . فكان ضرر هذا الباب سينال الناس في هذه الدنيا قبل الاخرة . فيكون في ذلك تعطيل

وكيف يحصل ذلك من صانع حكيم ، وعلى فرض حصوله (وفرض المحال ليس بمحال) .

فان من آثاره ونتائجه خروج الناس عن جادة الصواب والتنقل والتروى في اعمالهم وافعالهم ، بل ولابد وان تحصل في طباعهم طبيعة الكلبة والضراوة والاقدام دون ملاحظة او تأمل على الفواحش وانتهاك المحارم ودون خوف او وجل من عقاب ينتظرهم او نعيم يرجونه لان هؤلاء الطالحون لا يتصورون حياة بعد الموت ولم يعترفوا ببعث او حساب اما الصالحون الذين يعترفون بكل ذلك ويعترفون بان نعيم الآخره لا ينال الا بالعمل الصالح فانهم اذا امنوا من نصيبهم في الاخرة ولو بدون عمل واستحقاق كما يريد المعترض اصبحوا كالمنكرين لا يخشون الاقدام على كل ما ينافى الفضيلة والوجدان لا طمينانهم بالنعيم بالاخرة .

ذلك لان النفوس مجبولة على الشر والفساد سيما اذا اطلق لها العنان ورفع عنها الخوف من عقاب او حساب .

والنفس كالطفل ان تهمله شب على حب الرضاع وان تفطمه ينفطم

فاذا كانت الحال هذه في النفوس فمن ذا تراه يكف نفسه عن فاحشة يهواها ومن كان يتحمل مشقة البر والاحسان التى لم يقدم عليها بكل ميل ورغبة خصوصاً اذا كان واثقاً بانه صائر الى نعيم الاخرة لا محالة عمل الخير او لم يعمله .

العدل والحكمة معاً وموضع للطعن على التدبير بخلاف الصواب في وضع الامور في غير مواضعها .

ثم لو فرض ان يكون الامر كما يريد المعترض فمن يأتمن على نفسه او ماله او اهله ممن لم يخف العقاب ولا الحساب في حين انه تابع في اعماله وافعاله مع الهوى والميول النفسية البشرية الخبيثة .

هذا لعمري هو الفوضى والهمجية وهذه الحال هي الوحشية القلقة للناس والمكدرة للعيش ، فهل تبقى للحياة لذة او راحة .

الهم إن كل ذلك خلاف الحكمة مناف للعدل من الخالق العدل الحكيم سبحانه ، كما إنه سيكون موضع طعن المعترض ونقده مرة اخرى .

قاتل الله الجهل والعناد .

لماذا تعم الآفات البر والفاجر ؟

قال عليه السلام : وقد يتعلق هؤلاء بالآفات التي تصيب الناس فتعم البر والفاجر او يبتلى بها البر ويسلم الفاجر منها ، فقالوا : كيف يجوز هذا في تدبير الحكيم وما الحجه فيه . فيقال لهم ان هذه الآفات وان كانت تنال الصالح والطالح جميعاً فان الله عز وجل جعل ذلك صلاحاً للصنفين كليهما اما الصالحون فان الذي يصيبهم من

قد يتمسك المعترض من هؤلاء الجهال بما يرى من تلك الحوادث التي تصيب الناس فيقول دون تعقل وتأمل : اذا كان حدوثها لا يراد منه سوى المظة ولذع النفوس لردعها عن المعاصي وانتهاك المحارم ، فلماذا تعم البر والفاجر ، وقد يبتلى البر ويسلم منها الفاجر ، على ان البر لا يحتاج الى تنبيه و ولا الى لذع وعظه ، فهل هذا تدبير حكيم ، واذا جاز فما الدليل عليه . فيقال لهم :ان هذه الآفات وان كانت تنال الصالح والطالح كليهما ولكن الله تعالى قد جعل ذلك صلاحاً ومنفعه للصنفين معاً اي البر والفاجر وذلك ان ما يصيب الصالحين من اذى الآفات ومشقة المصائب يزيدهم الله بواسطة شكرهم وتقبلهم اياه بالصبر والتسليم نعماً على النعم التي كان قد انعم بها عليهم في سالف الايام من معرفة التوحيد والاعتراف بالنبوه والأخذ بالاصول الدينيه الوارده على لسان النبي (ص) . وهذه بالضروره مما يحمدوم ويحضهم على

هذا يزدهم نعم ربهم عندهم في سالف ايامهم فيحدوهم ذلك على الشكر والصبر . اما الطالحون فان مثل هذا اذا نالهم كسر شرتهم وردعهم عن المعاصي والفواحش وكذلك يجعل لمن سلم منهم من الصنفين صلاحا في ذلك . اما الابرار فانهم ليغتبطون بما هم عليه من البر والاصلاح ويزدادون فيه رغبة وبصيرة واما الفجار فانهم

الازدياد من الشكر والاكثار من الصبر ، ومعلوم ان كل ذلك من صالحهم ونفعهم في الدنيا والآخرة .

اما الطالحون والفجار وهم الذين انكروا التوحيد ولم يعترفوا بالحساب والعقاب والثواب فان مثل هذه الآفات اذا ما نالتهم لابد وان تكسر شرتهم وتقلل من غلوائهم وضلالهم وتردعهم عن المعاصي ولو في القليل من الزمن سيما اذا اشتدت عليهم وطأة تلك الحوادث حتى انستهم لذائذهم وشهواتهم عندما ضعفت مقاومتهم لها بكل ما لديهم من قوة وغرور ، وهذا هو ايضاً من صالحهم لتخفيف بعض ما سيلقونه من عذاب الآخرة اذا ماتوا .

اما من سلم من الصنفين من تلك الآفات فانه تعالى ايضاً سيجعل لهما صلاحاً ومنفعة ولا يحرمهما من ذلك ، فالابرار سيخرجون منها وهم مغتبطون بما نالوه من البر والصلاح فيزيدهم رغبة في العمل الصالح وبصيرة في المعتقد وحثاً على طلب الاجر بفعل الخير والاحسان ، واما الفجار فانهم اذا خرجوا منها بعد زوالها يخرجون وهم عارفون في الجملة رأفة ربهم بهم وتطوله عليهم بالسلامة مع عدم استحقاقهم لذلك منه ، وهذا وان لم يخرجهم من الضلال الى الهدى

يعرفون رأفة ربهم وتطوله عليهم بالسلامة من غير استحقاق فيحضهم ذلك على الرأفة بالناس والصفح عمن اساء اليهم

غالباً ولكن قد يرغبون بالرأفة بالفقراء . ورحمة الضعفاء والعفو عن المسيء واشباهها ويعرف كل منهم انه احد افراد البشر لا ميزة له على غيره فلا يظلم ولا يتكبر على انسان ولو الى حين .

وبهذا ستستقيم حياة الافراد والمجتمعات مدة حتى تعود النفس الاماره الى طبيعتها الشريرة والى اجرامها المعتادة فى حال الدعة وخفض العيش والامان فان عادت واستفحلت رجعت عليها الحوادث بارادة خالقها الحكيم لترتدع وتثوب الى رشدها لطفاً منه وتفضلا .

وعلى هذا فلا مانع من ان تعم الافات والمصائب كل بر وفاجر لشمول نفعها الجميع من مطيع وعاصي والله هو الرؤف الرحيم .

إذا أصابت الأموال فلماذا تبتلى الأبدان

قال عليه السلام: ولعل قائلا يقول: ان هذه الافات التي تصيب الناس في اموالهم. فما قولك فيما يبتلون به في ابدانهم فيكون فيه تلفهم كمثل الحرق والغرق والسيل والخسف . فيقال له : ان الله جعل في هذا ايضا

الى هنا يعترف الخصم المعترض بان الحوادث والافات العامة كالوباء والطاعون والبرد والجراد مثلا كلها تأتي لصالح الناس عامة عظة وتنبيها وعبرة ليقفوا في معاصيهم الى حد ، فيخف عقابهم وهذا بالطبع لطف وتفضل من الخالق .

لكنه يعود فيقول لعل قائلا يقول ان هذه الافات التي تصيب الناس في اموالهم تأتي لصالح العام والخاص .

ولكن ما قولك فيمن يبتلون به في ابدانهم من مرض او الم او شيء آخر يكون فيه تلفهم كمثل الحرق والغرق والسل والخسف وغيرها .

فيقال له ان الله تعالى لم يخلق هذا الخلق عبثاً (سبحانك ما خلقت هذا باطلا) كما انه لم يترك ما خلق سدى دون ان يلحظهم بعين عنايته وتدبير حكمته وشمول لطفه .

اذن فلا حادث يحدث في العالم الا وان يكون لغاية مطلوبة ، ولا آفة

صلاحا للصفين جميعاً . اما الابرار فلمالهم فى مفارقة الدنيا من الراحة من تكاليفها والنجاة من مكارهها . واما الفجار فلمالهم في ذلك من تمحيص اوزارهم وحبسهم عن الازدياد منها . وجملة القول ان الخالق تعالى ذكره

تحصل للفرد او للمجتمع الا لحكمة مقصودة .

ومعلوم ان هذه الغاية وهذا القصد لن يعود للخالق الغنى القادر بل يرجع لنفس المخلوق بصنفيه من بر وفاجر .

اما الفجار فاذا اصيبوا بشيء مما ذكر كان ذلك تمحيصاً لذنوبهم ولو في الجملة هذا اذا سلموا اما اذا ماتوا او تلفوا فيكون ذلك حبس ذنوبهم ومنعهم من الازدياد منها وربما عوضوا بشيء قليل من باب اللطف والتفضل .

واما الابرار فانهم ان ماتوا فانهم في مفارقة هذه الدنيا راحة من تكاليفها الشاقة ونجاة من مكارهها المتعاقبة المتتالية حيث يفدون على رب رؤف رحيم منعمين بتمحيص ذنوبهم وتخفيف اوزارهم وسيما فى المرض والعلل .

فقد ورد عن النبي (ص) : ما من مسلم عرض له مرض الا حط الله تعالى به خطاياه كما تحط الشجرة ورقها .

وعن ابى عبد الله عليه السلام حمى يوم كفارة لما قبلها .

وفي خبر : ما تنزل المصائب والاوصاب بالعبد حتى تتركه كالفضة البيضاء (اقول) هذا اذا كان مؤمناً موحداً اما اذا كان فاجراً او منكراً لضرورة من ضروريات الدين فقد يخفف عنه بمقدار تحمله وذلك ايضا عن طريق اللطف

وفي خبر آخر : ان المريض ليخرج من مرضه نقياً من الذنوب كيوم ولدته امه وتتساقط عنه الخطايا كتساقط الورق من الشجرة فى الخريف .

بحكمته وقدرته قد يصرف هذه الامور كلها الى الخير والمنفعة . فكما انه اذا قطعت الريح شجرة او قطعت نخلة اخذها الصانع الرقيق

وفي كلام بعض السلف : ان في العلل لنعما لا ينبغي للعقلاء ان يجحدوها منها تمحيص الذنوب والتعرض للثواب بالصبر واليقظة من الغفلة واذكار النعمة في حال الصحة واستدعاء التوبة وحث النفس على الصدقة .

وقال بعض العلماء : ان تمحيص الذنوب بواسطة المرض باعتبار امرين : احدهما ان المريض لابد وان تنكسر شهوته وغضبه الذين هما مبدأ الذنوب والمعاصي ومادتها .

ثانيهما ان من شان المرض رجوع الانسان فيه الى ربه بالتوبة والندم على المعصية والعزم على ترك مثلها كما في قوله تعالى (واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه او قاعداً او قائماً) فما كان من الذنوب والسيئات غير متمكنة من جوهر النفس فانه يسرع زوالها وما صار ملكة بالتكرار والاستمرار فربما يزول على طول مدة المرض ودوام الانابة الى الله تعالى .

ومنه (ص) : ابشروا فانه لا يصيب احدكم مصيبة الا كفر الله بها ذنوبه حتى الشوكة يشاكها احدكم في قدمه .

وعلى هذا فقد اصبح من واجب المؤمن بل كل مسلم ان يحسن الظن بالله تعالى فيما يرد عليه من المصائب وان لا ييأس من روح الله ولا يحتمل انه تعالى لا يرحمه بل يعذبه البته ولا يحسب كل ما يرد عليه من البلايا والمكاره هو شر له بل كل ذلك خير له وصلاح وذخيرة لمعاده غداً يوم الجزاء .

ثم قال عليه السلام : وجملة القول ان الخالق تعالى ذكره بحكمته وقدرته قد

واستعملها في ضروب من المنافع فكذلك يفعل المدبر الحكيم في الافات التي تنزل بالناس في ابدانهم واموالهم فيصيرها جميعاً الى الخير والمنفعة.

يصرف هذه الامور كلها في الخير والمنفعة.

(اقول) واى خير احسن من حط الذنوب عن الابرار واى منفعة افيد من تخفيفها عن الفجار، بل واى صلاح اولى بالانسان من ان تخف اثقال اوزاره عن ظهره يوم ينجو المحفون ويوم لا عمل ينجيه ولا ملجأ يأويه سوى رحمة الله تعالى وثواب ما ناله من تلك البلايا والمحن. وادث في دار الدنيا على ان في موته وذهابه الى خيره يحصل به الخير ايضا الذي نوعه كما شبهه الامام عليه السلام بالشجرة اذا قطعها الريح او النخلة اذا قطعت اخذها الصانع او النجار واستعملها في ضروب من المنافع كما يعملها باباً او شباكا او كرسياً او صندوقاً وما الى ذلك مما تصلح له وتنفع الناس.

وكذلك يفعل المدبر الحكيم جلت قدرته في تلك الافات النازلة بالانسان فبارك الله احسن الخالقين.

لماذا تحدث هذه الآفات ؟

قال عليه السلام : فان قال . ولم تحدث على الناس قيل له لكيلا يركنوا الى المعاصى من طول السلامة فيبالغ الفاجر فى ركوب المعاصى ويفتر الصالح عن الاجتهاد في البر ، فان هذين الامرين جميعاً يغلبان على الناس فى حال الخفض والدعة وهذه الحوادث التى تحدث عليهم ترد عنهم

فى هذا الفصل تكرار لما تقدم وهو كتاكيد لذلك اذ يقول : لماذا تحدث هذه المكاره على الناس فيجاب بان حكمة حدوثها واضحة جلية لدى الناس وذلك لكيلا يركنوا ويميلوا الى المعاصى اذا طالت عليهم السلامة والدعة ورفاهية العيش والترف مأمونين من المخاوف والمزعجات .

ومعلوم ان الانسان ليطغى اذا طالت سلامته وبالغ في ارتكاب المعاصى والجرائم اذا كان فى ترف لم تلذعه حادثة ولم ير مكروهاً .

كما ان الصالح ليفتر عن الاجتهاد فى البر والطاعة والعبادة وغيرها من التكاليف الدينية اذا كان فى دعة وراحة دون ان يوعظ بشيء او ينبه بحادث يوقظه . وان هذين الأمرين كليهما اى ركوب المعاصى من الفاجر وفتور الاجتهاد من البار ليغلبان على طباع الناس مطلقة فى حال الخفض والدعة كما قيل .

وتنبيههم على ما فيه رشدهم فلو خلوا منها لغلوا في الطغيان والمعصية كما غلا الناس في اول الزمان حتى وجب عليهم البوار بالطوفان وتطهير الارض منهم

ان الشباب والفراغ والجده مفسدة المره اي مفسدة

لذلك ترى ان هذه الحوادث تأتي للناس كل مدة ومدة حسب اقتضاء الحكمة السماوية وحاجة الاصلاح فتردع الفاجر عن جرائمه وتنبه الصالح عن فتوره ليرجع كل الى رشده ، فان ذلك منجاة ليوم لا ملجأ فيه سوى العمل الصالح ، فلو خلت هذه الناس من تلك الافات ولم تلذعهم كل مدة لغلوا في الطغيان وتمادوا في المعصية ، كما علا وتجبر من كان قبلهم في اول الزمان مثل قوم نوح عليه السلام الذين وجب عليهم البوار والتلف بالطوفان لخستهم وعنادهم وشركهم ، وقد طهر الله تعالى منهم الارض بذلك الماء المنهمر من السماء والمتفجر من عيون الارض فكانوا كمن لا اثر له ولا عين .

فسبحان القادر القاهر العزيز المنتقم .

إنتقاد الجاحدين لحكمة الموت

قال عليه السلام : ومما ينتقد الجاحدون للعمد والتقدير الموت والفناء . فانهم يذهبون الى انه ينبغي ان يكون الناس مخلدين في هذه الدنيا مبرئين من هذه الافات ، ينبغي ان يساق هذا الامر الى غايته

مما لا ريب فيه ان الجحود ليس بامر مستقر في النفوس ولا سهل القبول عليها مهما كانت خبيثة شريرة لان تصور الخالق مهما كان التصور شيء طبيعي فطري لا مناص من الشعور به على كل حال وفي كل وقت من الاوقات، ولكن النفوس المأسورة للشهوات والمقيدة بالميول والاهواء تجد في انكاره سبيلا لانطلاقها من قيود المعتقدات واسر الديانات .

لذلك تجد الجاحدين يلجؤن الى الانتقادات التافهة والاعتراضات الصبيانية التي لو تأملها المنتقد منصفاً فمحال ان يقبلها هو ايضا ولكنه ينتقد ليبرر جحوده ويعترض ليغطي على اجرامه .

ومن جملة تلك الأنتقادات اللاشعورية قولهم ان الموت والفناء امر خال من الحكمة وانه قد جرى في الناس دون قصد معقول أو تقدير حكيم .

ولكن الحكمة والصلاح في ان تكون الناس كلهم مخلدين في هذه الدنيا مبرئين من كل آفة خارجية كالبرد والحر اد او داخلية كالوباء وساير الاسقام والآلام

فينظر ما محصوله . افرأيت لو كان كل من دخل العالم ويدخله يبقون ولا يموت احد منهم . الم تكن الارض تضيق بهم حتى تعوزهم المساكن والمزارع والمعاش . فانهم والموت يفنيهم اولا فاولا يتنافسون في المساكن

وهنا يجيب الامام عليه السلام مراعياً مداركهم الصبيانية فيقول : ينبغي ان يساق هذا الامر الى غايته فينظر ما محصوله : إني تتأمل لترى ماذا سيحدث في العالم اذا كان الامر كما يريدون .

فانا نرى انه لو كان كل من دخل الى هذا العالم لا يموت وكل من يأتي بعده يبقى حياً الى مدى الدهر .

الم يكن الارض تضيق بهم فلاتسعهم مساكنا لكثرتهم ولو ملئت الارض كلها مساكن ، فاذا صار هذا فهل تبقى قطعة لمزارعهم التي هي من ضروريات الحياة واساس البقاء وعلى فرض وجود ارض للزراعة فهل يبقى ماء لسقي الزروع مع احتياجهم الى شربه لان فيه حياتهم .

ثم هل يستريح احد الناس في دار خاصة له مع إن كثيرا غيره لا مأوى لهم يركنون اليه وذلك لكثرتهم وقلة قطع الارض بالنسبة لهم مع ما في طباع الناس من الحرص والشره والتنافس .

على انا نراهم الان والموت يفنيهم اولا فاولا ويميت قسماً ليحل محله قسم آخر بالولادة لم يفنعوا بما يملكون من الارض بل يتنافسون على المساكن والمزارع فيما بينهم حتى تشب الحروب وتسفك الدماء فيهم فكيف كانت حالهم لو صاروا الى ما اراد المعترض اي يولدون ولا يموتون فيزداد عددهم يوماً بعد يوم، وهل تصفو لهم الحياة او يستريح انسان في حياته ، هذا اذا كان يظن بانه لا يموت

والمزارع حتى تنشب بينهم في ذلك الحروب وتسفك فيهم الدماء . فكيف كانت تكون حالهم لو كانوا يولدون ولا يموتون وكان يغلب عليهم الحرص والشره وقساوة القلوب . فلو وثقوا بانهم لا يموتون

فكيف به اذا وثق بانه لا يموت وانه مخلد في الدنيا فانه دون شك لم يقنع ولن يقنع الواحد من الناس بما ناله ولن يسامح احداً اخذ منه شيئاً ولا يسلو شيئاً يحدث عليه من احد دون ان ياخذ ثاره .

وكل هذا بالطبع مما يكدر الحياة ويشقي النفوس ولن تبقى للعيش لذة وفي العمر راحة .

على انا نرى الكثير من المسنين والمعمرين مع علمهم بقرب موتهم قد يسأمون الحياة ويملون العيش بل ويكرهون كل شيء من امور الدنيا جزعا مما يلاقي من بئي نوعه وفراراً من هذه الحال إلى الموت الذي يرجو به الخلاص والراحة من حياته حتى قال بعضهم .

الا موت يباع فاشتريه فان العمر ما لا خير فيه

ويقول الآخر جزعاً مما يراه في غيره من العجز والحاجة الى غيره في اكثر اموره .

يارب لا تبقني الى زمن اكون فيه كلا على احد
خذ بيدي قبل ان اقول لمن القاه عند القيام خذ بيدي

وقد ورد من جملة خطبة اسيد الشهداء ابي عبد الله عليه السلام :

(خط الموت على ولد آدم مخط القلادة في جيد الفتاة) بمعنى ان الموت كالقلادة في رقاب الناس حتى الوقوع مخطوط عليهم بقلم القضاء لا محيص منه

لماقنع الواحد منهم بشيء يناله . ولا افرج لا حد على شيء يسأله . ولا سلا من شيء يحدث عليه . ثم كانوا يملون الحياة وكل شيء من امور

على انه مع ذلك زينة له كما تزان جيد الفتاة بالقلادة وذلك باراحته من حوادث الدنيا ومصائبها الى نعيم الاخرة ومباهجها .

وقد ذكر الحكيم ابن مسكويه في الهوامل والشوامل عن سبب الجزع من الموت عند البعض وتمنيه عند الاخرين .

فقال ما ملخصه : ان الانسان بطبيعته محب للدنيا وبفطرته عاشق للحياة فيها وذلك لكونه جزءاً منها ، يبدأ منها وينتهي اليها كما تدرج فيها منذ خرج من صلب ابيه الى رحم امه وفي تنقلاته في الرحم بادوار خلقته ناشئاً نشوالنبات حتى صار حيوانا غير ناطق حينما خرج الى العالم ثم افيض عليه النطق فصار انسانا ثم تدرج في انسانيته حتى انتهى الى ما يؤهله للمراتب في الحياة حسب قابليته واستعداده لذلك صار يحب الدنيا ويعشق الحياة لاتصاله بها في كل تطوراته وتحولاته ولكونه لا يرى غيرها له ملجأ وملتحداً ، اللهم الا ان يصد هذا الحب ويصدع هذا العشق امور عظيمة وحوادث شديدة بحيث تجعله جازعاً منها حتى يمل حياته فيها ويكره العيش معها فيرجح الموت على مثل هذه الحياة ويطلب فراقها .

اما الحياة التي تقترن بعيش رغيد وصحة جيدة واعتدال مزاج وكفاية من الوجوه الجميلة والتمكن من حصول السعادة مع قرة العين الاهل والولد فانها حياة محبوبة لا يطلب معها صاحبها الموت لانه يقطع كل ذلك ويوصله الى مالا يعلم مصيره فيجزع من الموت ولا يجزع من الحياة .

وهذا النوع من الناس قليل نادر لان الدنيا .

طبعت على كدر ونحن نريدها صفواً من الاكدار والاقذار

نعم ان المؤمن بالله واليوم الآخر ليعتقد بان الحياة بعد الموت هي الحيوان ونعيمها افضل وادوم من نعيم الدنيا لذلك فهو يرجو باعماله الصالحة وتوجهه الى رحمة ربه وغفرانه ان يحصل على ذلك ، فاذا طلب الموت فلا من جزع لانه يرى نفسه ينتقل من العدم الى الوجود .

ولا كذلك الملحد المنكر البعث واليوم الاخر فانه انما يجزع من الموت لانه ينتقل من وجود الى عدم وتنقطع عنه بالموت كل لذاته وشهواته وهذا هو السبب في جزع المرء من الموت .

والخلاصة ان الجزع من الموت يكون لاعتقاد الجازع بان ما قبله خير مما بعده اما الآمر بسؤال اليه اى طلبه والجزع من الدنيا فلاعتقاد الطالب بان ما بعد الموت خير مما قبله وعلى كل حال .

(فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) .

إنتقادان آخران

قال عليه السلام : فان قالوا . انه كان ينبغي ان ترفع عنهم المكاره والاوصاب حتى لا يتمنوا الموت ولا يشتاقوا اليه . فقد وصفنا ما كان يخرجهم اليه من العتو والاشر الحامل لهم على ما فيه فساد الدنيا والدين . وان قالوا : انه ينبغي ان لا يتوالدوا كيلا تضيق بهم

يقول الشاعر :

ومن البلية عذل من لا يرعوى عن غيه وخطاب من لا يفهم

نعم لقد اصاب هذا الشاعر عين الحقيقة فان من البلية على العاقل المتبصر ان يخاطب هؤلاء الجهال الجاحدين او ان يعذلهم وهم لا يرعوون عن غيهم فينتقدون لا عن ادراك بالحكمة التي ارادها الخالق في خلقه .

والانكى من ذلك انهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً والا فما معنى قولهم:

كان ينبغي ان ترفع عن الناس هذه الحوادث ، والغاية من ذلك ان لا يتمنوا الموت ولا يشتاقوا اليه وذلك بعد ان ذكر لهم الامام عليه السلام خطام ووصف لهم ما سيصير اليه الناس من العتو والاشر اذا ما رفعت عنهم تلك المنبهات وتخلوا عن هاتيك المكاره والاوصاب وعاشوا في ترف ونعمة لان النفوس مجبولة على الشر والعبث ولا يردعهم عن الافساد الا الخوف والنذر التي

المساكن والمعايش . قيل لهم اذا كان يحرم اكثر هذا الخلق دخول العالم والاستمتاع بنعم الله تعالى ومواهبه فى الدارين جميعاً اذا لم يدخل العالم الا قرن واحد لا يتوالدون ولا يتناسلون .

تنسيهم لذائذ الحياة وتلذهم ريثما يعتبروا ويتعظوا .

ثم ترفع عنهم بعد قليل ليرجعوا الى صوابهم ولا يخرجهم طول الترف والنعيم الذى لا يشوبه كدر الى ما فيه فساد دينهم ودنياهم من ارتكاب الجرائم والعكوف على المعاصى والسدوف عن الصلاح والاصلاح .

ثم تأمل سخفهم ايضا فى قولهم : ان الخالق تعالى اذا كان رؤفاً بعباده رحيما بهم فلماذا جعلهم يتوالدون ويتناسلون جيلا بعد جيل فيكثر عددهم فى الارض فتضيق بهم المساكن فتعسر عليهم المعايش وتكدر الحياة فلا يجدوا فيها راحة اذ لم تبق فى الارض قطعة يمكن ان تزرع للقوت الواجب والعيش الضرورى وذلك لكثرة ما يحتاجون اليه من الدور حتى فى الصحارى والقفار فكان مما ينبغى من الحكمة والتدبير ان لا يتوالدوا بل يبقى كل من خلق فى القرن الأول حياً لا يموت لكيلا تحصل هذه الكثرة فلا تضيق المساكن ولا يعسر المعاش على احد من الناس .

فيقال لهم : ان الامر اذا كان كما تريدون وهو ان من ولد فى القرن الاول لا يموت ويبقى محافظاً على حياته ونسله الى آخر القرن الاول فقط .

ثم ينقطع النسل ولا يولد غيرهم كان اكثر الخلق على هذا محروماً من دخول العالم والاستمتاع بنعم الله تعالى التى خلقها لساكنى الارض من البشر والحيوان .

كما سيحرمون من نعيم الاخرة الذي لا يحصل عليه الا بالعمل الصالح في الدنيا لانها مزرعة الاخرة .

فكان طلب هذا الجاهل بنقده السخيف لا ينتج اذا حصل (ومحال ان يحصل) الا حرمان من كان سيدخل العالم بالتوالد والتناسل .

وليحل محل من يموت من سلفه الذين استمتعوا قبلهم بنعم الله تعالى وحصلوا على حظهم ونصيبهم من الدنيا ثم ذهبوا الى ما عملوا ان خيراً فخيراً وان شراً فشراً .

والله غفور رحيم شديد العقاب .

إنتقاد أسخف

قال عليه السلام : فان قالوا : انه كان ينبغي ان يخلق في ذلك القرن الواحد من الناس مثل ما خلق ويخلق الى انقضاء العالم . يقال لهم رجع الامر الى ما ذكرنا من ضيق المساكن والمعايش عنهم ، ثم

حقاً ان مداراة الناس على اختلاف مداركهم وتفاوت عقلياتهم ، وإن خطاب من لا يفهم حتى يدرك خطأ ما يعلق بذهنه من الاوهام والخيالات الفاسدة لمن اشق الامور التي تحتاج الى سعة صدر وصبر وجلد كما ان المداري يجب ان يكون ذا اخلاق فاضلة كريمة وشعور تام بالمسؤلية خصوصاً اذا كان المسؤل راعياً والسائل من رعاياه اومرشداً يخلص في ارشاده او هادياً يسعى بكل قواه لانتشال الناس من هوة الخطايا والمعاصي ويجهد لرفعهم من منخفض الجهل الى مرتفع العلم والتوحيد كأئمتنا المعصومين اوصياء النبي الكريم عليه وعليهم السلام والذين خلفهم جدهم الرسول (ص) قرناء القرآن لهداية هذا الخلق وحفظ دين التوحيد والعدل في شريعة الاسلام الحقة بعده وقد اختص سيدنا ومولانا الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام بهذه المسؤلية العظمى اكثر من غيره من الأئمة آبائه عليهم السلام وذلك لما مني به في عصره من كثرة الملحدين ومختلف جماعات الجاحدين واهل البدع من الزنادقه .

لو كانوا لا يتوالدون ولا يتناسلون لذهب موضع الانس بالقرابات وذوى الارحام والانتصار بهم عند الشدائد وموضع تربية الاولاد و السرور

وهنا كيف يسكت عن ردعهم وارشادهم وهو هو الامام المسؤل عن اصلاح الامة وارجاع المنحرفين عن الصواب الى محجة الحق والمكلف بالجهاد فى سبيل احقاق الحق واعلاء كلمة التوحيد بكل ما اوتي من حول وطول .

وقد رأيت في الفصول السابقة ما لديهم من النقود والاعتراضات التي لا تخطر على بال عاقل بل ولا يقبلها حتى الجاهل اذا ما تأمل قليلا .

والآن يقول الناقد بعد اندحاره فى الانتقادات السالفة ، انه كان ينبغى ان يخلق فى ذلك القرن الواحد من الناس مثل ما خلق ويخلق بعد هـذا الى انقضاء العالم .

اقول : وبالطبع يجب إن لا يتوالدوا ولا يتناسلوا ولا يموتوا ولا يحدث عليهم شيء من المكاره والاوصاب بل يعيشون فى نعيم دائم فى الدنيا الى آخر الابد ـ كما يزعم الناقد ـ .

إذن فيقال له : انكم جماعة المعترضين انتم قلتم قبل هذا تم نسيتم ان التوالد والتناسل مما يكثر الواردين الى العالم وهذا مما يضيق عليهم المساكن والمعايش ، فكيف تطلبون الان ان يولد كل الناس في القرن الواحد ، ولم تفكروا ان الامر عند ذلك يرجع الى ما ذكرتم من ضيق المساكن والمعايش ، اليس ذلك من الجهل بما تتكلمون وعدم تعقل فيما تنتقدون .

ولو تأملتم قليلا فى هذا التوالد التدريجى المتعاقب لعرفتم ما فيه من الحكم والفوائد التي لا يستغنى عنها في نظام الحياة وبقاء النسل الانساني قوياً سالماً مثل

الاستيناس بالقرابات وذوي الارحام والانتصار لهم وبهم والاستعانة في الشدائد والافراح والاتراح .

ومثل الارتياح في تربية الاولاد وما فيها من لذة وانس وسرور وآمال ، وفي هذه الامور وغيرها مما لا يدركها الا ذوو العقول السليمة والادراك المستقيم

ومن المعلوم ان المراد بالرحم والقرابة هو كل قريب معروف بالنسب مطلقاً وان بعدت النسبة فان الرحم ولاسيما الاسرة هي الحجر الاساسي والجزء المقوم للمجتمع .

اذ من الاسر والارحام تتكون الشعوب والامم ، فان صلحت الارحام وقويت عرى صلتهم وتراص صفهم ، استقام امر الامة وعاش الجميع بسلام .

وقد قيل : لو لم يكن من معرفة الانساب لاجتماع الارحام الا اعتزازها من صولة الاعداء وتنازع الاكفاء ، لكان وجودها والتعرف بها من حزم الرأي الا ترى لقوم شعيب عليه السلام حين قالوا له (ولولا رهطك لرجمناك) فابقوا عليه لرهطه .

قال علي عليه السلام : اكرم عشيرتك فانها جناحك الذي به تطير وصلاحك الذي به تصول وهم العدة عند الشدة ، فاكرم كريمهم وعد سقيمهم واشركهم في امورك ويسر على معسرهم . وقال الشاعر :

واذا رزقت من النوافل ثروة فامنح عشيرتك الدوانى فضلها
واعلم بانك لم تسود فيهم حتى ترى دمث الخلائق سهلها

اذاً فالانس بالقرابة والاستنصار والاستعانة بذوي الارحام لدى كل

حادث يحتاج الى عون ومساعدة بعد التعارف والصلة بهم فهو شيء مفروغ منه مسلم الفائدة عقلا ونقلا .

وكذلك وجود الاطفال بالتوالد والانس بهم وبثر بيتهم والارتياح بالسهر على راحتهم ، والامل بما يتوقعونه من المساعدة لابويهم عند العجز والكبر وما الى ذلك مما يغبط عليه ذو الولد ويتمناه من لا ولد له .

فاذا امعنا النظر في هذه الامور وامثالها من لوازم الحيـــاة وضروريات العيش مما لا يسع ذكرها باسهاب فى هذا المختصر علمنا علماً يقيناً أن هذا النظام العالمى المتقن وهذا الابداع في الصنعة يسير منذ الخليقة حتى اليوم وهو سائر الى الابد طبقا للحكمة والتدبير والتقدير من صانع حكيم عليم قدير ، وان كل مـا ينبغى هو على ماينبغى وكل ما لا ينبغى هو على ما لا ينبغى ، وان كلا تذهب اليه الاوهام الفاسدة وتزعمه العقول الكاسدة الناقصة سوى الذي قدره الله تعالى فى تنظيم هذا العالم هو سفه فى القول وخطأ فى التقدير وخطل فى الرأى وهذر فى الكلام فتأمل .

الطعن على التدبير

قال عليه السلام : ولعل طاعناً يطعن على التدبير من جهة اخرى فيقول : كيف يكون ههنا تدبير ونحن نرى الناس في الدنيا من عزيز فالقوى يظلم وينتصب . والضعيف يظلم ويسام الخسف . والصالح فقير مبتلى . والفاسق معافى في موسع عليه . ومن ركب فاحشة او انتهك

الجهل جهلان بسيط ومركب ، فالبسيط صاحبه من لا يعلم ويعلم انه لا يعلم ، والمركب هو الذي لا يعلم ولا يعلم انه لا يعلم بل يخال انه ادرك كل شيء ووقف على كنه الامور .

لذلك تراه ينتقد بلا مستند ويطعن في امور لم يشعر بحكمتها ولم يدرك ماهيتها ، وهذا هو البلاء المبرم والجهل الذي يعسر على العقلاء اصلاحه ويمتنع عليهم ارجاع صاحبه الى محجة الصواب .

وقد قيل : ان افلاطون وهو ذلك الفيلسوف العظيم والحكيم المشهور الخالد لما سئل منه بعد ان بلغ ذروة العلم والفلسفة :

الى اين بلغت من العلم ؟

اجاب : انى الان علمت باني لا اعلم ، كنت جاهلا مركباً فاصبحت بفضل العلم جاهلا بسيطاً .

مجرماً لم يعاجل بالعقوبة . فلو كان في العالم تدبير لجرت الامور على القياس القائم . فلو كان الصالح هو المرزوق والطالح هو المحروم وكان القوى يمنع من ظلم الضعيف والمنتهك المحارم يعاجل بالعقوبة فيقال في

وان هؤلاء الجاحدين ومنكرى الخالق والخلقه حسبوا لجهلهم المركب انهم هم الذين يدركون حكمة الاشياء والعدل في التدبير فطعنوا في تدبير العالم قائلين كيف يكون تدبير في هذا العالم ونحن نرى الناس فيه — من عزيز — اى ان العزيز سابق غيره فى مضمار الحياة مالا وبدنا وعشيرة وجاها .

لذلك نرى القوى من الناس ظالمـــا للضعيف غاصباً له (غاضباً عليه) والضعيف مظلوماً ذليلا يسام الخسف لضعفه ، كما نرى الرجل الصالح فقيراً مبتلى بالامراض والبلايا والفاسق معافى موسعاً عليه فى رزقه .

وكذلك مرتكب الفاحشة ومنتهك المحارم يفسق ويفجر دون خوف او وجل فلم يعاجل عليه بالعقوبة في هذه الدنيا ليرتدع عن فيه واجرامه وهـذا كله خلاف التدبير والحكمة .

فلو كان فى هذا العالم تدبير من مدبر حكيم لجرت الامور على القيـاس العقلى البشري القائم بمعنى انه كان ينبغى ان يكون الصالح المطيع هو المرزوق المعافي والطالح العاصى هو المحروم المبتلى كما كان ينبغى ان يمنع القوى من ظلم الضعيف ويعاجل بعقوبة منتهك المحارم .

هذا هو التدبير الحكيم الذى اراده الطاعن فى هذا العالم حسب عقليته الضئيلة فيقال فى جوابه : انه لو كانت الامور تجري كما يريدها الطاعن لما بقى للانسان فضل على سائر المخلوق وقد جعله الله سيد المخلوقات بما احسن اليـــه

جواب ذلك ان هذا لو كان هكذا لذهب موضع الاحسان الذى فضل به الانسان على غيره من الخلق . وحمل النفس على البر والعمل الصالح احتسابا للثواب وثقة بما وعد الله تعالى عنه ولصار الناس بمنزلة

فكرمه بالعقل والنطق والهيكل والصورة فقال تعالى :

(ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) .

ثم لم يكن يحصل للنفس الانسانية حينئذ حافز يحملها على البر والعمل الصالح طلباً للثواب او ابتعاداً عن العقاب فى الاخرة ولم تبق له ثقة او حاجة الى ما وعد الله تعالى من نعيم بعد الموت اذ يصبح وهو لا يرجو الا الحاضر اي الزمن الذي هو فيه في الدنيا دون ما يأتي من حياة الاخرة .

ثم على هذا يعيش الانسان في دنياه كالبهائم وبمنزلة الدواب التى تساس بالعصا والعلف فتقرع بالعصا اذا عصت وتعطى العلف اذا جاعت وهي مطيعة لتسمن فتؤكل ولتقوى على العمل المطلوب منها فهى اذن لا تعمل ولا تقوى الا اذا لمع لها بعا بين كل ساعة واخرى لتستقيم في حياتها الحيوانية .

وبهذا لم يكن له او لم يحصل له اعتقاد بثواب او عقاب ولم يرزق يقينا بها . فاذا بلغ الانسان الى هذا الحد من الروحيات والمعتقدات كان خارجا عن حدود الانسيه (جمع انسان) وداخلا في سنخ البهائم والدواب .

فان الانسان انما امتاز عن سواه بعقله ونطقه اللذين بهما صار قابلا لفرض التكاليف السماوية الدينية عليه وبسببهما كان محلا لارسال الرسل وانزال الكتب المشتملة على القوانين والتعاليم والارشادات والاخلاق والمعاملات واشالها .

الدواب التي تساس بالعصا والعلف ويلمع لها بكل واحد منهما ساعة فساعة فتستقيم على ذلك . ولم يكن احد يعمل على يقين بثواب او عقاب حتى كان هـذا يخرجهم عن حد الانسية الى حد البهائم ، ثم

ولا كذلك الحيوان الذي خلق لقضاء مآرب الانسان فلم يعط العقـل والنطق ولم يكلف بشيء مما كلف به الانسان .

فاذا صار هذا الانسان المكرم المفضل كما يريده المعترض الجاهل اصبح كالبهيمة لا يعرف الا ما حضر امامه من نعيم الدنيا فيعمل لها دون ان يلحظ غالباً ماضي او مستقبلا سيأتي بعد في الدنيا والاخرة .

واذا صار الصالح لا يعمل عن يقين بثواب اوعقاب بل لطلب الحاضر من رزق وسعة في الدنيا فقط والطالح لا يمتنع عن ظلم او فاحشه الا لخوفه وترقبـه نزول العقوبه عليه من ساعته .

كانت افعال جميع الخلق لا تجرى الا على الحاضر امام العين فقط ومعناه ان لا يكون لديهم يقين بالأخرة ولا بما عند الله من ثواب وعقاب ولا بما وعد من نعيم وعفو وغفران او اوعد من سخط وعذاب ونيران

وعلى هذا كيف يستحقون نعيم الآخرة الخالد ، ولماذا تخلق جنه ونار ، ولماذا ترسل الرسل والكتب

وبعد هذا لو سايرنا الطاعن من جهه الغنى والفقر والعافيه والبلاء لقلنا له: ان هذه الامور ليست جاريه كلها على خلاف قياسك دائماً بل قد تجرى عليه احياناً ، وذلك امر مفهوم لا يحتاج الى برهان ودليل اذ نرى كثيراً من الصالحين الموحدين المطيعين قد يرزقون المال الكـثير في الدنيا لضروب من

لا يعرف ما غاب ولا يعمل الا على الحاضر من نعيم الدنيا، وكان يحدث من هذا ايضا ان يكون الصالح انما يعمل للرزق والسعة فى هذه الدنيا ويكون الممتنع من الظلم والفواحش انما يكف عن ذلك لترقب

الحكمة والتدبير

منها إنه لا يسبق الى قلوب الناس ضعيف الاعتقاد واليقين ان الكفار هم المرزوقون فقط وان الابرار هم المحرومون فيوجب ذلك ان يؤثر الناس الفسق على الصلاح والظلم على العدل اذ يعتقدون أن ذلك مجلبة للرزق فى الدنيا . كما ان كثيراً من الفساق نراهم والعقوبة تعاجلهم اذا ما تفاقم طلبهم وطغيانهم وعظم ضررهم على الناس وعلى انفسهم عتواً وغروراً . كما عوجل لفرعون بالغرق فى البحر ولبخت نصر بالنبه ولبليس بالقتل .

اما امهال بعض الاشرار هن سرعة العقوبة وتاخير ثواب بعض الاخيار الى الأخرة فذلك لحكم واسباب خفيت على العباد ولا بدان تخفى، على ان هذا الاخفاء لا يبطل التدبير ولا يناقض الحكمة الالهية بل هو عين الصواب والصلاح للانسان نفسه والان نذكر لك هؤلاء الثلاثة الذين عوجلوا بالعقوبة بسرعة فى الدنيا قبل الاخرة .

اما فرعون : والمراد به فرعون موسى عليه السلام طبعاً لان ملوك مصر كلهم يلقبون بفرعون وجمعهم فراعنة واسم فرعون هذا ـ الوليد بن مصعب ابن معاوية بن ابى نمير بن القلوص بن ليث بن هامان بن عر بن عليق بن عوج بن عاد .

والفراعنة هم من بقايا عمالقة العراق من قوم عاد فانهم لما اضمحلت دولة

عقوبة تنزل عليه من ساعته . حتى تكون افعال الناس كلها تجري على الحاضر لا يشوبها شيء من اليقين بما عند الله ولا يستحقون ثواب الآخرة والنعيم الدائم فيها . مع ان هذه الامور التي ذكرها الطاعن

بابل الاولى نزحوا من العراق الى اليمن ونقلوا حضارة بابل اليها واسسوا لهم بها دولة ، وبعد استقرارهم هناك اخذوا يغزون اطرافهم لتوسيع ملكهم وخصوصاً مصر التي كانت يومذاك موضع الخيرات وبلد النفوس والمال .

وقد كثر غزو اولئك العمالقة لمصر طمعاً في خيراتها حتى سماهم المصريون (شاسوا) اي البدو والغزاة .

واخيراً وبعد غزوات كثيرة استولوا على مصر وكونوا هنـــاك دولة الفراعنة وقد دامت هذه الدولة مدة طويلة حتى ملك منهم اخيراً (قابوس بن مصعب) وكان ظالماً غشوماً .

ولما هلك تولى اخوه (الوليد بن مصعب) هذا الذي كان اشد من اخيه عتواً وطغيانا حتى نسي الناس ظلم اخيه ولا سيما بنو اسرائيل الذين اتخـــذهم عبيداً حيث لم يكونوا قبطيين من قومه .

وبالتالي ادعى الربوبية باستعانة وزيره (هامان) وقد كانت مدة ملـكه حسب قول بعض المؤرخين (٤٠٠) سنة ولكن صاحب ناسخ التواريخ يدعي ان مدة ربوبيته (٣١) عاماً ويمكن التوفيق بين القولين ان دعوى الربوبيـة منه كانت في اواخر حكمه وهي (٣١) عاماً .

فبعث الله اليه كليمه موسى بن عمران عليه السلام عند تفاقم طغيانه لعله يتذكر او يخشى ، فدعاه الى الحق وانذره العقاب فلم يرتدع فاراه من الايات

من الغنى والفقر والعافيه والبلاء ليست بجارية على خلاف قياسه بل قد تجرى على ذلك احياناً والامر مفهوم . فقد ترى كثيراً من الصالحين يرزقون المال لضروب من التدبير . وكيلا يسبق لقلوب

ما اخافته وآمنت بسببها السحره فلم يؤمن ثم انزل الله تعالى عليه وعلى قومه الايات التسع فلم يرعو ولم يدعه غيه ان يخضع للحق .

بل قال لشيطانه هامان (ياهامان ابن لى صرحا لعلى ابلغ الاسباب اسباب السموات) . ليصل حسب فكره القاصر الى الله في السماء فيقتله ويستريح فبناه له هامان حتى ارتفع الى علو فى الهواء حيث لا يمكن لانسان ان يصعد عليه او ان يقف لشدة الارياح والاهوية ولما كمل بعث الله تعالى عليه عاصفة رمت به الى الارض .

فاتخذ له هامان تابوتاً مربعاً وعمد الى اربعة انسر فراخا فرباها حتى اذا بلغت قوتها وكبرت وضع في جوانب التابوت الاربعة اربع خشبات وعلى رأس كل خشبة لحماً وجوع الانسر ثم شد ارجلها باصل الخشبة وفتح إعينها فلما نظرت اللحم وهي جائعة اهوت اليه لتاكله فارتفعت فى الهواء وطارت بالتابوت الذي فيه فرعون وهامان حتى لم يروا من الارض الا الظلمة كما لم يريا تغييراً فى وضع السماء ثم طار الى حيث لا يعلمون فهبت عليهم عاصفة اهوت بالتابوت الى الارض ولم يصبهما شيء حلماً من الله تعالى .

ولتكون الحجة البالغة عليهما ولكن فرعون كان فى ذلك الوقت اشد عتواً وعناداً اذ ادعى انه قتل رب موسى فى السماء .

ولكن موسى عليه السلام لم يعبأ به وبقى يدعوه ويرشده وقومه الى الله

الناس ان الكفار هم المرزوقون والابرار هم المحرومون فيؤثرون الفسق على الصلاح، وترى كثيرا من الفساق يعاجلون بالعقوبة اذا تفاقم طغيانهم وعظم ضررهم على الناس وعلى انفسهم كما عوجل فرعون بالغرق وبخت

تعالى واخيراً طالب اليه اخراج بنى اسرائيل من مصر ليخرجوا من العبودية والظلم والجور والاستخدام فلم يقبل بل ازداد جوره عليهم .

ولما تفاقم طغيانه وعظم ضرره على الناس عوجل بالعقوبة فكان ان غرق هو وقومه فى البحر (وهو بحر القلزم ويسمى البحر الاحمر) بعد ان نجا بنو اسرائيل كلهم قبله .

اما بخت نصر فهو ملك من ملوك بابل كان حكمه من ٦٠٤ الى ٥٦٤ قبل الميلاد وسمى (بخت نصر) بفتح نون نصر مع الصاد المشددة لانه كما ذكرته التواريخ وجد رضيعاً ملقى جنب صنم اسمه (نصر) .

ولما لم يعرفوا له أبا نسبوه الى ذلك الصنم وكلمة (بوخت) معناهـــا بلغتهم (ابن) فقيل له بخت نصر اي ابن الصنم نصر .

وقد نقل الطبري ان الله تعالى اوحى الى احد انبيائه ان ائت الى بختنصر وامره ان يغزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم .

فقدم عليه فى بابل واخبره بذلك ، وكان فى زمان معد بن عدنان فوثب بختنصر اولا على من كان فى بلاده (بابل) من تجار العرب الذين كانـــوا يقدمون عليهم ، ويمتارون منهم الحب والتمر والثياب .

ثم جمع من ظفر به منهم واعتبرهم اسرى وبنى لهم (حيراً) اي سوراً على النجف وحصنه .

نصر بالنبيه وبلبيس بالقتل . وان امهل بعض الاشرار بالعقوبة واخر بعض الاخيار بالثواب الى الدار الاخرة لاسباب تخفى على العباد لم يكن هذا مما يبطل التدبير .

ثم ضمهم فيه ووكل بهم حرساً ثم نادى بالناس للغزو ، فاخذ يغـــزو ويقتل ويأسر كل من صادفه في طريقه وهو قاصد بيت المقدس .

ولما وصل بعد الفتك الذريع في طريقه هدم القدس وساق نحواً من (٧٠) الف يهودي اسارى ، ويقال انه اخذ التوراة واتلفه .

وهكذا صار يعبث في الارض فساداً حتى تفاقم طغيـانه وعظم ضرره فعوجل بالعقوبة اذ تنحى عن جنده للصيد فتاه في الصحراء حيث لا يعلم مصيره

اما بلبيس ـ فالظاهر انها مدينة او قرية في شمال مصر على نهر (ابي منجا) فرع من النيل .

قال المتنبي :

جزى عربياً بمست ببلبيس ربها بمسعاتها تقرر بذاك عيونها

وقد كانت ذات زهو ونعمة في الايام السالفة فطغى اهلها وتجبر ملكها فكان ذلك سبب غزو الغزاة لهم والقتل العام فيهم وقتل ملكهم لعتوه وعناده .

وفي دائرة معارف البستاني : ان اموري الفرنجي ملك اورشليم اخذهـا ايضا في سنة ٥٥٩ وقتل اهلها مقتلة عظيمة ثم ملكها الافرنج في سنة ٥٦٤ وسبوا اهلها وقتلوا منهم جمهوراً غفيراً الى غيرها مما وقع فيهم لطغيانهم .

ولذلك استشهد الامام عليه السلام بالقتل الذي وقع فيها عندما تفاقـــم عتوهم وطغيانهم وضررهم بالناس هذا قبل الاسلام ،

واما ما حصل فيهم بعد الاسلام فذلك شاهد آخر على تعجيل عقوبتهم في الدنيا .

واما امهال بعد الاشرار في عقوبتهم عند ما يوغلون في المعاصي وكذلك تاخير ثواب بعض الاخيار في الدنيا الى الاخرة وهم لا يفترون عن الصبر والاحسان والطاعة لله .

فذلك لحكم واسباب خفيت على العباد ولابد ان تخفى بل لابد ان نعتقد فيها إنها من التدبير والتقدير وان ذلك لا يبطل التدبير ولا ينافي الحكمة ما دمنا نحن نعتقد ان الخالق مدبر حكيم وعالم قادر وغني عن خلقه لطيف بهم وان له في خلقه شؤن .

من تدبير الملوك تأجيل العقاب والجزاء او تعجيلهما

قال عليه السلام : فان مثل هذا يكون من ملوك الارض ولا يبطل تدبيرهم بل يكون تأخيرهم ما اخروه وتعجيلهم ما عجلوه داخلا فى صواب الرأي والتدبير . واذا كانت الشواهد تشهد وقياسهم يوجب ان للاشياء خالقاً حكيما قادراً فانه يجب عنه ان يدبر خلقه . فانه لا يصلح فى قياسهم ان يكون الصانع يهمل صنعته الا باحدى ثلاث خلال . اما عجز واما جهل واما شر اره .

لما ذكر الامام (ع) ان بعض الاشرار قد يمهلون فى عقوباتهم عندما يعصون ويوغلون في المعاصي وان بعض الاخيار كذلك قد يؤجل ثوابهم على اعمالهم الصالحه الى الآخرة ،

وبعد ان اثبت ان كل ذلك عن حكمة وتدبير واسباب لا يعلمها الا الخالق المدبر .

اراد ان يقرب ذلك الى الاذهان فقال (ع) : ان شبه هذا قد يكون من ملوك الارض ـ اعنى ان هذا الامهال والتأجيل وهذا التدبير الجاري فى العالم قد يحصل مثله من ملوك الارض فيمهلون المخالف لهم فى اتباع اوامرهم ويؤجلون جزاء من اطاعهم او عمل لهم اعمالا جليله كما يريدون ، فترى الناس

وكل هذا محال في صنعته عز وجل وتعالى ذكره وذلك ان العاجز لا يستطيع ان يأتي بهذه الخلائق الجليلة العجيبه .

والجاهل لا يهتدي لما فيها من الصواب والحكمة

والشرير لا يتطاول لخلقها وانشائها واذا كان هذا هكذا وجب ان يكون الخالق لهذه الخلائق يدبرها لا محاله وان كان

ذلك منه سياسة وصواب تدبير فلا ينتقد لاعتقاد الناس ان الملك لا يعمل الا ما هو صلاح ملكه ورعيته ، وهذا امر جار لدى كل الامم والشعوب ، والشواهد عليه كثيره وكثيره جداً .

فاذا كانت الناس ترى هذا العمل من الملوك تدبيراً وصواب رأي وسياسه لازمة مطلوبه على انهم مخلوقون فلماذا ينكرون تدبير خالق العالم وملك الملوك فى خلقه ومخلوقه على انهم ينظرون بجلاء الى شواهد إبداع الخالقه واتقان النظام وكلها تنطق بان لها خالقاً حكيماً قادراً عالماً وما الذي يمنعه من ان يدبر خلقه بما يراه صالحاً لهم ، لكن هذا الطاعن لا شك انه اما جاهل لا يدرك ما يقول او عارف لكنه معاند مكابر قد طغى عتواً وضلالا .

هذا ومن المسلم لدى العقلاء اجماعاً إن كل صانع لا يهمل صنعته سدى دون نظام واتقان الا لاحدى خلال ثلاث .

اما لعجز او لجهل او لشرارة ، اما العاجز فانه لا يستطيع ان يأتي بمثل هذه الخلائق البديعة العجيبة ولا يتمكن من ابداع هذا النظام الفائق والاتقان المعجب لانه عاجز قاصر عن الاتيان بمثله .

لا يدرك كنه ذلك التدبير ومخارجه . فان كثيراً من تدبير الملوك لا تفهمه العامة ولا تعرف اسبابه لانها لا تعرف دخيلة امر الملوك واسرارهم . فاذا عرف سببه وجده قائماً على الصواب . ولو شككت في بعض الادوية والاطعمة فيتبين لك من وجهين او ثلاث انه حار او بارد لم يكن ستقضي عليه بذلك وتنفي الشك فيه عن نفسك فما بال هؤلاء الجهلة لا يقضون على العالم بالخلق والتدبير مع هذه الشواهد

واما الجاهل فهو ابعد واعجز اذ كيف يأتي بالحكمة والصواب وهو لا يدرك ما يصنع ولا يهتدي الى شيء من ذلك .

واما الشرير فان ما فيه من خبث الذات وشرارة الطبع لا يدعانه ان يتطاول للخلق والانشاء فضلا عن ابداع الصلاح فيما يصنع او يخلق .

وهذه الحالات الثلاث كلها ممتنعة مستحيلة بالنسبة للخالق الباري لهذا العالم الملىء بالحكمة والعدل والابداع والنظام ، اذن لابد وان نعترف صاغرين بان مثل هذا الصانع لهذا العالم العظيم والمصور الخالق لهذه الخلائق لابد وان يدبر ما خلق بحكمته ولا يلزم من ذلك ان تعرف الناس كنه تدبيره وسر اعماله وافعاله بل انه هو الفعال لما يريد

كما ان الكثير من تدبير الملوك في الارض لا تفهمه العامه ولا تعرف اسبابه لانها لا تعرف دخيلة الملوك ولا اسرارهم ولكنهم اذا اطلعوا على شيء من ذلك وعرفوه اقروا واعترفوا بصواب رأيهم وجميل تصرفهم مع ان الملوك مخلوقون والمخلوق يخطىء ويصيب مهما بلغ من العقل والتدبير .

الكثيرة واكثر منها ما لا يحصى كثرة . ولو كان نصف العالم وما فيه مشكلا صوابه لما كان من حزم الرأى وسمت الادب ان يقضى على العالم بالاهمال لانه كان في النصف الاخر وما يظهر فيه من الصواب والاتقان ما يردع الوهم عن التسرع الى هذه القضيه فكيف وكلما فيه اذا فتش وجد على غاية الصواب حتي لا يخطر بالبال شيء الا وجد ما عليه الخلقة اصح واصوب منه .

فكيف بخالق الملوك ومبدع العقول . على ان نظام خلقته وبديع اتقانه وعجيب انشائها شواهد عدل على صواب التدبير والقدرة والعدل .

ثم انك اذا شككت مثلا في بعض الادويه او الاطعمه ولم تدرك كنهها ولم تعرف خواصها اهي بارده ام حاره وهل تفيد ام تضر ثم تبين لك من بعض التجربات انها حاره او بارده او مضره اونافعه ، الم يكن هذا التبيان دليلا عندك على صحة ما سمعت وبذلك يرفع شكك وتجزم بما فيها من حرارة او برودة او نفع او ضرر .

فاذا كان هذا هكذا فلماذا يحصل الشك لهؤلاء الجهال في وجود التدبير والصواب في هذا العالم مع كثرة هذه الشواهد في كل جزء من اجزاء العالم الفسيح والخلق العظيم .

ثم ان هؤلاء المنتقدين الذين يحسبون انهم يدركون كنه الامور وحقيقة الاشياء ويرون في بعض الاشياء المخلوقه ما يوافق حكمتهم وصوابهم الزعوم وينطبق على قياسهم الذي جعلوه معياراً لتدبيرهم لو كانوا واجدين بالتحري

. . . . . .

ان نصف العالم وما فيه مشكلا صوابه فهل من حزم الرأي او سمت الادب ان يقضى على العالم كله بالاهمال محتجاً بان في النصف الاخر لم تدرك حكمة ما يقع فيه وما يصدر على اهله .

الم يردعهم عن امثال هذه الآ نتقادات الواهية ما وجدوه فى النصف الاول من الصواب والاتقان .

الم يمنعهم ذلك الوهم عن التسرع فى الحكم على العالم بانه لا حكمة فيه ولا تدبير ، على انه في الحقيقة والواقع لو فتش العالم لوجد دون ريب انه على غاية الصواب ولرؤى ان في كل كلى وجزئى منه شاهد جلى ينطق مصرحا بالصواب والتدبير .

بل ولن يخطر فى بال اى انسان شيء من هذه المخلوقات الا كان ما هو عليه هو الاصوب الا حكم الاصح الاتقن مما يتصوره الجاحدون ويتخيله المنكرون . اجارنا الله من الجهل المقيت .

العالم زينة

قال عليه السلام : واعلم يامفضل ان اسم هذا العالم باسان اليونانية الجارى المعروف عندهم (قوسموس) وتفسيره (الزينة) وكذلك سمته الفلاسفة ومن ادعى الحكمة ، افكانوا يسمونه بهذا الاسم الا لما رأوا فيه من التقدير والنظام فلم يرضوا ان يسموه تقديراً ونظاماً

الفلسفة كلمة يونانية مركبة من (فيل) بمعنى الحب و (سوف) بمعنى الحكمة والفيلسوف هو محب الحكمة ويمكن ان تقابل هذه الكلمة فى العربية بكلمة (الحكيم) .

والحكمة عندهم قسمان . ماالها تعلق بالعمل كالطب والرياضيات ، وما لها تعلق بالعلم كالعلم باحوال اصول الموجودات الثانية وهي ـ الواجب والعقل والنفس والهيولى والصورة والجسم والعرض والمادة .

فيكون المراد من الفيلسوف او الحكيم هو المتقن للامور والناظر الى العالم بمنظار العلم والعقل لمعرفة كنهه وادراك حقائق الاشياء بالعقل البشرى .

ثم ان هؤلاء الفلاسفة والذين هم دونهم من مدعى الحكمة لما نظروا الى هذا العالم بعين العلم والعقل وتفكروا ببصيرتهم فى ابداعه واتقانه ونظامه واحكامه ادركوا ان حقيقة هذا العالم بما فيه من جزئي وكلى لم يكن مشتملا

حتى سموه زينة ليخبروا انه مع ما هو عليه من الصواب والاتقان على غاية الحسن والبهاء .

على الابداع والتدبير والنظام والاتقان فحسب بل ان كل ما حوى مع ذلك ذو بهاء وحسن وجمال .

لذلك فقد اطلقوا عليه اسم (الزينه) او (قوسموس) باليونانية والسبب فى ذلك انهم علموا ان هذا النظام والاتقان وغيرهما ظاهر ومعلوم لدى كل متأمل ذى شعور ولكن ارادوا ان يعلموا الناس ايضاً ويفهموهم ان العالم كله مخلوق بالقصد والتدبير والارادة والتقدير وهو مع ذلك ذو بهاء وجمال فهو في الحقيقة زينة ايضا .

فسبحان الله احسن الخالقين

اصناف الجاحدين

قال عليه السلام : اعجب بالمفضل من قوم لا يقضون على صناعة الطب بالخطأ وهم يرون الطبيب يخطىء ويقضون على العالم بالاهمال ولا يرون شيئاً منه مهملا . بل اعجب من اخلاق من ادعى الحكمة

قسم الامام عليه السلام الجاحدين للخالق وحكمته الى اربعة اقسام ، وقد ابدى عجبه من مزاعمهم الفاسدة التي لا يقبلها اقل الناس شعوراً واضعفهم ادراكا وذلك لوضوح خطأ ما ذهبوا اليه وسخافة ما زعموه .

اولها ـ الجهال الذين يرون خطأ الطبيب واضحاً في كثير من علاجاته لحفاء كثير من الامراض عليه حتى قد يموت مريضه الذي يعالجه احيانا وهو جاهل باصل مرضه الذي اماته وهم مع ذلك لا يقضون على صناعة الطب او نفس الطبيب بالخطأ والاشتباه بل يؤكدون علمه مقرين بصحة قواعد الطب وتوابيعه ثم يزعمون هؤلاء ان هذا العالم المنظم المتقن البديع وجد مهملا دون قصد وارادة وبلا حكمة مطلوبة على انهم لا يرون فيه شيئاً مهملا وبلا فائدة .

ثانيها ـ منتحلوا الفلسفة ومدعوا الحكمة وهؤلاء هم اعجب من الصنف الاول في سخافة مزاعمهم فانهم كانوا قد ادعوا المعرفة والعقل في حين انهم جهلوا مواضع الحكمة في الخلق .

وحيث انهم ادعوا الحكمة ولم يدركوها ارسلوا السنتهم بذم الخالق جل

حتى جهلوا مواضعها في الخلق فارسلوا السنتهم بالذم للخالق جل وعلا بل العجب من المخذول مانى حين ادعى علم الاسرار وعمى عن دلائل الحكمة فى الخلق حتى نسبه الى الخطأ ونسب خالقه الى الجهل فتبارك

وعلا عناداً ومكابرة ، وستراً على ادعائهم الحكمة وهم عارون منها ، ولو كانوا حقيقة فلاسفة وحكماء لانتبهوا لخطأهم ولم يقولوا بمقالتهم الشنعاء ولم يبـــدوا رأيهم السخيف .

ثالثها ـ الغنوية وهم مانى المخذول واتباعه ، فانه حين ابتدع دينه الشنوى كان يدعى علم الاسرار ومعرفة خفايا الامور وكنه الاسباب ، ولكنه كان ساحراً مشعوذاً اعمـــاه خبثه وعتوه وضلاله عن رؤية الحق ومعرفة دلائل الحكمة في الخلق .

كادعاء ادعاؤه بعلم الاسرار الى جهله بالاسرار حتى انكر كل سر من اسرار الخليقة واوصلته معرفته بخفايا الامور الى جحد كل حكمة في الامور وانكار كل ما في العالم من اتقـان ونظام وابداع لذلك تراه ينسب الخطا فى الخلق والجهل للخالق تعـالى الله وتبارك الحكيم الكريم الذي احـكم كل شيء خلقه وافاض عليه نعمه الجزيلة بكرمه .

رابعها ـ المعطلة والمراد منهم هنا الماديون الذين راموا ان يدركوا بالحس ما لا يدرك بالعقل ، فلما اعوزهم ذلك لعدم مطابقة فكرتهم على كثير من الحوادث خرجوا الى الجحود والتكذيب .

قال الاستاذ محمد فريد وجدى في كتابه (على اطلال المذهب المادي) ما مختصره :

الحكيم الكريم ، وانجب منهم جميعاً المعطلة الذين راموا ان يدركوا بالحس مالا يدرك بالعقل فكلما اعوزهم ذلك خرجوا الى الجحود والتكذيب

ان هذه النزعة المادية قد بدأت منذ حوالى القرن الخامس قبل الميلاد في اليونان وبقيت هكذا مقصورة على بعض المفكرين وظلت مخفية نحواً من الف سنة حتى كانت فتنة الحروب الدينية بين البروتستانت والكاثوليك فتجرأ الفيلسوف الايطالى بطرس (١٥١٦) على التصريح جهاراً بانكار الروح وعدم امكان حدوث الاعمال العقلية بدون الحس ، فاحيا المذهب المادى اليوناني .

ولما كان القرن الثامن عشر كان الجو اكثر ملاءمة لنشر الفلسفة المادية فنبغ فى انجلترا (دافيد هيوم) ناصراً لها وابده في فرنسا (كوندياك دولامترى ديدرو) وفى المانيا (البارون هولباخ) . ولم يهل القرن التاسع عشر حتى كان الفلسفة المادية دولة قوية الشوكة ولا سيما في المانيا حيث اعتبرت هذك تحريراً للعقل من اسر الاضاليل الموروثة .

ولما ظهر مذهب (دارون) سنة ١٨٥٩ م تلقاه الماديون بالتصفيق الحاد وحسبوه ضربة قاضية على كل مذهب ينافض المادية لاقامة الدليل القاطع على أن الكون كله ساير على نظام آلى محض ، ثم عللوا كل صغيرة وكبيرة في العالم بالنواميس المادية البحتة، منكرين ما عداها من عقل مدبرا وعالم روحانى زاعمين ان كل مالا يحس باحدى الحواس هو من خرافات الاقدمين واكاذيب المتنبئة المشعوذين وخيال لا ، اصل له وعلى هذا الاساس جحدوا الخالق وانكروا الحكمة وكذبوا التدبير والتقدير والارادة فى العالم وهذا فى الحقيقة والواقع هو الجهل المقيت المبنى على جرف هار .

اجارنا الله تعالى منه

العقل لا يدرك فوق مرتبته

قال عليه السلام : فقالوا : ولم لا يدرك بالعقل . قيل لانه فوق مرتبة العقل ، كما لا يدرك البصر ما هو فوق مرتبته، فانك لو رأيت حجرا يرتفع فى الهواء علمت ان راميا رمى به ، فليس هذا العلم من

ان في هذه المحاضرة القيمة كلمات يلزم معرفتها اولا قبل الشرح ليظهر لنا مراد الامام (ع) بهذا الكلام ، وهى العقل والنفس والبصر ، فانها وان تقدم تفصيلها فى الجزء الاول من هذا الشرح الا انا نذكرها هنا مجملا ليسهل فهم العبارة .

فالعقل هو ذلك المخلوق العجيب صنعه العظيم اثره الكبيرة فائـــدته الذي تكرم وتفضل به الخالق على الانسان ليميزه عن الحيوان وليجعله اشرف مخلوقاته اذا اطاعه بواسطته واخسها اذا عصاه بمخـالفته ، كما أنه هو ذلك الخلق الذي بسبب ادراكه ارسلت الرسل وانزلت الكـتب وسنت القوانين العادلة ، كما كان الانسان العاقل بالتكاليف الشرعية والانسانية .

وقد قال الامام علي عليه السلام : العقل شرع من داخل والشرع عقل من خارج .

وفى الحديث : ما خلقت خلقاً احب الي منك اياك آمر واياك انهى وبك اعاقب وبك اثيب .

قبل البصر بل من قبل العقل . لان العقل هو الذى يميزه . فيعلم ان الحجر لا يذهب علواً من تلقاء نفسه . افلا ترى كيف وقف البصر على حده فلم يتجاوزه . فكذلك يقف العقل على حده من معرفة

وقيل : لا نجاة الا بالطاعة والطاعة بالعلم والعلم بالتعليم والتعليم بالعقل .

وقد اختلف فى تعريفه لعدم معرفة حقيقته بل كل من عرفه كان تعريفه بواسطة آثاره وافعاله واحكامه ، ولكن القدر الجامع لجل التعاريف هو :

انه الجوهرة الثمينه التي اضائت الجسم الانساني حتى جعلته يضيء بين سايرالمخلوقات في هذا الكون فهو خير المواهب السماوية واعظم النعم الالهية التي تخرج الانسان من ظلمات البهيمية الى نور الأنسانية ، بل هو النور الذي يقذفه الله تعالى فى قلب من يشاء من عباده ليفرق بين الحق والباطل والحسن والقبيح والخير والشر فيستمد منه ما يسعده من علم ومعرفة ، ويهديه الى ما ينجيه في الآخرة من معرفة خالقه وتوحيده وهو هو الذى تدرك النفس به ما تدركه من العلوم الضرورية والنظرية .

أما الفرق بينه وبين النفس فهو كما قال بعض العارفين : ان الممكن المجرد عن الجسمية ان احتاج فى كمالاته الى البدن فهو النفس والا فهو العقل .

وقد عينوا محل العقل في المخ من الدماغ ، وقيل ان القلب والدماغ هما مجمع العقل .

وقيل ان القلب هو اسم من اسماء العقل كما ورد في الكتاب الكريم : (ام لهم قلوب يعقلون بها) والسبب فيتعيين محله فى الدماغ دون غيره من الاعضاء لانهم راوا ان هذا العضو إذا اصيب بشيء اختلت احكام العقل ولم تصب

الخالق فلا يعدوه . ولكن يعقله بعقل اقر ان فيه نفساً ولم يعاينها ولم يدركها بحاسة من الحواس . وعلى حسب هذا ايضا نقول ان العقل

قياساتة واحكامه .

ولان الدماغ هو منبع الحس والحركة ومصدر الادراك والشعور وكل هذه خدام العقل وآلاته .

فالعقل اذاً محدود الادراك فى نطاق الحواس ولا يستطيع ان يدرك خارج هذا النطاق كما ان كل عضو له عمل خاص ووظيفة محدودة لا يمكنه ان يتعداها الى غيرها او ما فوقها .

اما النفس فقد قال افلاطون : انها جوهر مجرد له ذاتية الجسم ووجودها ازلى ابدي .

وقال ارسطو : هي مجموع الوظائف العضوية التي امتاز بها الكائن الحى . ثم قسمها الى ناطقة تختص بالانسان ، وحاسة يشترك فيها الانسان والحيوان وغاذية توجد في الانسان والحيوان والنبات .

وقال ابن سينا : ان النفس لاتنشأ من امتزاج العناصر ولاهي صورة لازمة للجسم ولكنها عارضة عليه ، وان لكل جسد نفساً خاصة به لا تصلح الا له وهى تفاض عليه من واهب الصور .

وقال ابن مسكويه : النفس جوهر بسيط غير محسوس بشيء من الحواس ، وهى تدرك وجود ذاتها وتعلم انها تعلم ، وهي ليست بجسم لانها تقبل صور الاشياء المتناقضة اشد التناقض فى وقت واحد معاً كقبولها للاسود والابيض فى آن واحد مثلا وتقبل صور المحسوسات والمعقولات على السوية ،

يعرف الخالق من جهة توجب عليه الاقرار ولا يعرفه بما يوجب له الاحاطة بصفته .

ولا كذلك الاجسام .

وقال الطريحي في مجمع البحرين : النفس جاءت لمعان ، منها الدم يقال سالت نفسه اي دمه والروح يقال خرجت نفسه اي روحه ، ونفس الشيء عينه الى غيرها .

ولها باعتبار صفاتها المذكورة في القرآن خمس مراتب .

(١) الامارة بالسوء وهي التي تمشي على وجهها تابعة لهواها .

(٢) اللوامة وقد اشير لها بقوله (لا اقسم بالنفس اللوامة) وهي التي لا تزال تلوم نفسها وان اجتهدت بالاحسان وتلوم على التقصير في التعدي دنياً وآخره .

(٣) المطمئنة وهي النفس الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن او هي المطمئنة الى الحق والتي سكنها روح العلم وثلج اليقين فلا يخالجها شك .

(٤) الراضية وهي التي رضيت بما اوتيت .

(٥) المرضية وهي التي رضى عنها .

وبعضهم يذكر لها مرتبة اخرى وهي الملهمة (بفتح الهاء) وهي التي اشير اليها بقوله (فالهمها فجورها وتقواها) .

ولها تقسيم آخر عن كميل بن زياد عن امير المؤمنين عليه السلام حيث قال عليه السلام : يا كميل انما هي اربع .

(١) النامية النباتية .

. . . . . .

(٢) الحسية الحيوانية .

(٣) الناطقة القدسية .

(٤) الكلمة الالهية .

ولكل من هذه خمس قوى وخاصتان . فالنامية النباتية لها خمس قوى ماسكة وجاذبة وهاضمة ودافعة ومربية ، ولها خاصتان الزيادة والنقصان وانبعاثها من الكبد ، وهي اشبه الاشياء بنفس الحيوان .

والحسية الحيوانية لها خمس قوى سمع وبصر وشم وذوق ولمس ولهـا خاصتان الرضا والغضب وانبعاثها من القلب وهي اشبه الاشياء بنفس السباع .

والناطقة القدسية ولها خمس قوى فكر وذكر وعلم وحلم ونباهة وليس لها انبعاث وهي اشبه الاشياء بنفس الملائكة ولها خاصتان النزاهة والحكمة ، والكلمة الالهية لها خمس قوى بقاء في فناء ونعيم في شقاء وعز في ذل ووفر في غناء وصبر في بلاء ولها خاصتان الحلم والكرم ، وهذه هي التي مبدؤها من الله واليه تعود لقوله تعالى : (يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية)

والعقل وسط الكل لكيلا يقول احدكم شيئـاً من الخير او الشر الا اقياس معقول .

قال بعض العارفين : ان النفس اذا تابعت القوة الشهوية سميت (بهيمية) واذا تابعت الغضبية سميت (سبعية) واذا جعلت رذائل الاخلاق لها ملكة سميت (شيطانية) وسمى الله تعالى هذه في القرآن نفساً امارة بالسوء ان كانت رذائلها ثابتة ، وان لم تكن ثابتة بل تكون مائلة الى الشرمرة والى الخير اخرى

وتندم على الشر وتلوم عليه سماها (اللوامة) وان كانت منقادة الى العقل سماها (مطمئنة) والمعين على هذه المتابعات قطع العلاقة البدنية كما قال بعضهم :

اذا شئت ان تحيى فمت عن علائق من الحس خمس ثم عن مدركاتها
وقابل بعين النفس مرآة عقلها فتلك حياة النفس بعد مماتها

وقصارى القول ان النفس لم يعرف حتى موضعها من الانسان ، ولكن يظهر من مجموع اقوال القدماء والمحدثين انها هي تلك الروح التي حيرت العقول واقلقت افكار الفلاسفة والحكماء حتى اصبح الكل خاضعين لقوله تعالى :

(يسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا) .

اما البصر فهو ادراك المرئيات بواسطة (العين) وهذا العضو مهما بلغ من الاهمية وعظم النفع فليس هو الآلة تمثل بتركيبها وعملها الآلة المصورة (الكاميرا) .

فان النور الذي يقع عليها من اجسام المرئيات توصله الاعصاب المنتشرة على الشبكية الى المخ الذي هو محل العقل ليحكم به ، فيكون العقل في الحقيقة هو الرائي لا البصر .

فلو قطعت تلك الاعصاب والالياف المتصلة بين المخ والعين لعدمت العين رؤيتها لانفصالها عن المخ المدرك كما اذا اتلفت العين نفسها لم يرَ المخ ايضا لانه فقد الآلة الموصلة اليه تلك الصور .

هذه هي الكلمات التي اردنا بيانها ومعرفتها ، وقد تلخص من ذلك ان

. . . . . .

العقل دائرة محدودة ومرقى فى ادراكه معين لا يمكنه ان يرقى فوق مستواه ويدرك فوق مرتبته .

فانه مهما بلغ من الرفعة والعظمة فى الانسان لم يكن الا مصنوعاً مخلوقاً محدثاً ، ويستحيل ان يعرف المصنوع كنه صانعه لانه لا يماثله ولا يجانسه .

وعلى هذا فكيف يقال : لم لا يدرك الخالق بالعقل ؟

اليس هذا سؤال سخيف واستفهام صبيانى .

على انا نجاري المنتقد ونقول له : انظر الى حاسة البصر اى العين التى ينطبع بها كل مرئي يقابلها فانها ترى الاجسام ولا تدرك المعنويات المتعلقة بالمرئى .

فمثلا اذا رأيت حجراً يرتفع فى الهواء فانك دون شك تعتقد بان هناك راميا رمى به الى الاعلى .

فهل هذا العلم حصل من قبل البصر ؟

كلا . فان ادراك امثال هذه الامور المعنوية هى فوق مرتبة البصر ، وانما يكون من قبل العقل لانه هو الذي يميزها ومن هذا التميز يعلم ان الحجر لا يرتفع عاليا من تلقاء نفسه بل لابد وان يكون له رام يرميه الى فوق بقصد وارادة .

لذلك فان البصر يقف عند حده من الرؤية ولا يتجاوزه بل لا يمكنه ان يتجاوزها لان عمله محدود .

وكذلك العقل فانه هو ايضا له حد في معرفة الخالق تعالى لا يتعداه بل

. . . . . .

لا يستطيع ان يتعداه ، لان قدرته وادراكه ووظيفته محدودة كالبصر ، ومن كانت قدرته مقدرة محددة كيف يمكنه ان يعرف ما فوق مرتبته .

نعم ان الله تعالى يعرف بالعقل ولكن بدرك بذلك العقل الذي يقر بان في البدن نفساً لا بعاينها ولا يدركها بحاسة من الحواس التي يستخدمها في معرفة كل شيء .

اذاً فالعقل يعرف الصانع عن طريق ادراك اثاره وآياته في مخلوقاته ورؤية بديع صنعه ونظام تكوينها المتقن ليعترف بوجوده ويقر بتوحيده .

اما انه يعرفه معرفة احاطة بصفاته وكنه ذاته فذلك مستحيل خارج عن دائرة نطاقه وحدوده المفروضة له .

فسبحان الظاهر الباطن واللطيف الخبير .

لا يكلف الله نفساً إلا وسعها

قال عليه السلام : فان قالوا : كيف يكلف الضعيف معرفته بالعقل اللطيف ولا يحيط به .

قيل لهم : انما كلف العباد من ذلك ما في طاقتهم ان يبلغوه ،

قال الله تعالى في كتابه العزيز : (لا يكلف الله نفساً الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او اخطأنا ربنا ولا تحملنا اصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا وارحمنا انت مولانا فانصرنا على القوم الظالمين) .

لقد دلت هذه الآية الشريفة على ان الله تعالى لا يأمر احداً ولا ينهاه الا بقدر ما يستطيع ولا يكلف انسانا بل اي مخلوق الا حسب طاقته وقدرته بل لا يكلف الا بالاخف الايسر الذي لا يبلغ المجهود والمشقة خلافا للمجبرة الذين يجيزون تكليف العبد بما لا يطيقه على ان ذلك مخالف للعقل والنقل والوجدان

ومن هنا قال الامام عليه السلام : فان قالوا كيف يكلف الضعيف معرفته الخ اي كيف يكلف الله عباده ان يعرفوه ويحيطوا بكنهه وصفاته بهذا العقل اللطيف الذي اثبتم محدودية ادراكه وعدم استطاعته من الوصول الى فوق مستواه او ان يتعدى حدوده التي خلق لها وخلقت له ، فيقال لهم في الجواب

وهو ان يوقنوا به ويقفوا عند امره ونهيه ، ولم يكلفوا الاحاطة بصفته ، كما ان الملك لا يكلف رعيته ان يعلموا . اطويل هو ام قصير وابيض ام اسمر وانما يكلفهم الاذعان لسلطانه والانتهاء الى امره والا

أنكم اجحفتم في القول ولم تنظروا الى التكاليف والاحكام المفروضة بعين البصيرة والتأمل ، ولو عاينتموها غير مكابرين وتدبرتموها بعقل سليم لعلمتم انه تعالى انما كلف العباد ما هو في مقدورهم وبطاقتهم ان يبلغوه ولم يحملهم امراً ولم يطالب منهم فوق حدود عقولهم اللطيفة التي كان هو تعالى قد حدد ادراكاتها ، وكيف يكلف العبد باكثر مما اعطاه من قوة وادراك وهو اللطيف الحكيم ، بل اراد ان يحصل المكلف بعقله على اليقين بوحدانيته وان يقف على امره ونهيه ، ولم يطالب منه الاحاطة بصفاته ومعرفة كنه ذاته ، فان ذلك محال والله لا يكلف المحال لانه ظلم والظلم قبيح وهو جل شانه منزه عن كل قبيح .

ثم ان هذا المعنى وان كان جلياً واضحاً لا يحتاج الى برهان ولكن الامام عليه السلام اراد أن يوضحه بما هو مألوف للناس ومعروف لدى كل احد فقال عليه السلام ما معناه انكم ايها الناس ترون الملك مع رهبته كيف لا يكلف رعاياه بان يحيطوا باوصافه الشخصية او ان يعرفوا خصائصه الجسمية بمعنى انه طويل او قصير او ابيض او اسمر واشباه ذلك .

بل كل ما يريده منهم ان يطيعوه ويذعنوا لسلطانه ويأتمروا بامره وينتهوا عما ينهاهم عنه .

فلو فرض ان اتاه احد رعاياه وطلب منه ان يعرض عليه نفسه لينظر الى شكله ويحيط باوصافه قائلا له انى لا اطيعك ولا إعترف لك بملوكية وسلطان

ترى ان رجلا لو أتى باب الملك فقال : اعرض على نفسك حتى انقصى معرفتك والا لم اسمع لك . كان قد احل نفسه بالعقوبة فكذا القائل انه لا يقر بالخالق سبحانه حتى يحيط بكنهه متعرضاً لسخطه

حتى انقصى معرفتك.

فان مثل هذا الرجل بدون شك كان قد احل نفسه بالعقوبة اذ طلب من الملك ما لم يكلفه به وتجاسر بهذا الطلب على مقامه السامي وكذلك يكون القائل من العباد بالنسبة الى الله تعالى : انى لا اقر بالخالق حتى احيط بكنه ذاته او جليل صفاته فانه كان متعرضاً لسخطه وعقابه .

ثم ان هذا الطلب وإن كان تجاسراً من العبد بالنسبة لله تعالى فانه فوق ذلك مستحيل عليه سبحانه اذ لم يكن جسما ولا هو كالملك مخلوقا حادثاً محتاجاً فان كان الملك لا تطلب معرفته بذاته ومخصصاته وهو بشر مثلنا ومخلوق حادث محتاج فكيف بواجب الوجود الخلاق العظيم .

تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

الأمثال تقود العقل الى معرفة الله

قال عليه السلام : فان قالوا : او ليس قد نصفه فنقول هو العزيز الحكيم الجواد الكريم، قيل لهم : كل هذه صفات اقرار وليست صفات احاطة ، فانا نعلم انه حكيم ولا نعلم بكنه ذلك منه وكذلك

يقول الامام عليه السلام : انه لو فرض ان قال المعترض : كيف تمنعون معرفة الخالق معرفة احاطة ونحن قد نصفه بصفات كثيرة والشيء لا يوصف الا بعد معرفته معرفة كاملة محيطة كقولنا هو العزيز الذي لا يعادله شيء في عزته وعظمته وهو الحكيم الذي يضع الاشياء في مواضعها عن ارادة وحكمة وهو الجواد الذي لا يبخل بعطائه وانه تعالى جواد ان اعطى وجواد ان منع لانه ان اعطى للعبد فقد اعطاه ما ليس له وان منع العبد فقد منعه ما ليس له وهو الكريم الجامع لانواع الخير والشرف وسائر الفضائل ، فان العرب لا تستعمل كلمة كريم الا في المحاسن الكثيرة ، ولا يقال لاحد كريماً حتى يظهر منه ذلك .

قيل له : ان كل هذه الصفات وامثالها صفات اقرار لا صفات أحاطة ، بمعنى انا بعد اعترافنا بان صفات الباري هي عين ذاته وليست عارضة عليه ، وانه تعالى لا يحيط بكنه ذاته العارفون كيف تصل الى معرفة كنه صفاته الالباب والعقول ، وكيف يمكن لها الاحاطة ، وهذا سيد الانبياء يقول :

قدير وجواد وسائر صفاته، كما قد نرى السماء فلا ندري ما جوهرها ونرى البحر ولا ندري اين منتهاه بل فوق هذه الأمثال بما لا نهاية له ، ولان الامثال كلها تقصر عنه ولكنها تقود العقل الى معرفته

(سبحانك ما عرفناك حق معرفتك) ويقول (ص) انا لا احصي ثناء عليك انت كما اثنيت على نفسك) .

على إن كل ما يتعلق بذاته او صفاته فهو بحر زاخر لا يدرك قعره البصير ولا يجري فيه فكر العاقل الخبير بل كل سابح في بحار عزه غريق وكل طالب لانوار كبريائه حريق ، كيف ومن يتصور من ذاته تعالى شيئا فانه لابد وان يشابه ذوات المخلوق .

ومن يتعقل من صفاته امراً فهو يناسب صفات الممكن ، ولا ريب ان الواجب تعالى منزه عن الجسميه المستلزمه للزيادة والنقصان والافتقار . كما قال الامام الرضا عليه السلام :

(لا حقيقته اصاب من مثله ، ولا اياه عنى من شبهه ، اذ لا يبلسغ صفته الواصفون،حيث التوصيف عبارة عن بيان الكيفيات ولا كيفية له ولله المثل الاعلى)

اقول : ولما كان الله تعالى هو الكمال المطلق فقد استحـــال عليه النقص والقبح والعجز ، واذا انتفت عنه تلك الصفات فلابد ان نصفه بالقدرة والحكمة والعلم وغيرها من صفات الكمال .

على انا لا ندرك حقيقتها الا بمقدار ما تدركه عقولنا المحدودة ، لكن نقر بوجوده ووحدانيته وكماله المطلق اذاً فهي صفات اقرار فقط لا يمكننا بها ان نحيط بذاته المقدسة او ان نعرف صفاته الاحاطية لان مخالفة الذات الالهية لغيرها

من المخلوقات ظاهره .

والبداهة تقضي بان مرتبة المخلوق بينها وبين مرتبة الخالق بون بعيـــد وبعيد جداً .

فانه تعالى لا يشبه شيئا من خلقه لا في ذاته ولا في صفاته ، فان قيل سميع فليس ذلك باذن وان قيل بصير فليس البصر بعين وان قيل حكيم فانا لا نعلم كنه ذلك منه .

وكذلك جواد او قدير وسايرصفاته السامية : فشأن الالوهية اسمى من ان تتصوره العقول على ما يقبل المشاهدة والتجربة والتسجيل واشباهها .

قال الفيلسوف الالماني عمانوئيل كانت : لا سبيل للعقل في معرفة حقيقة الله والروح اذ لا تتوفر فيه القدرة على ذلك ولا مجال له في الماديات المحسوسة والله منزه عن المادة .

ولاجل ان ندرك المسألة كاملة شبه الامام عليه السلام ذلك بما نراه بحواسنا وهو البحر والسماء .

فالسماء التي اظلتنا لم نكن ندري ما جوهرها ومم ركبت امن العناصر الاربعة ام من بعضها ام من عناصر اخرى لم ندركها .

وكذلك البحر الذي يحيط بنا لا ندري اين منتهاه ومبتداه وكـــذلك الكثير من المخلوقات لا نعرف حقيقتها .

فان كان مثل هذين المخلوقين الظاهرين للعيون والذين تدركها اكثر حواسنا لا ندرك كنههما ولا تركيبهما ولا اى صفة خفية من صفاتهما .

فكيف يمكننا ان نعرف صانعها ونحيط بذاته وصفاته وهو اللطيف الذى

. . . . . .

لاتدركه الابصار ولا تصل اليه سابحات الافكار .

ولو اردنا أن نمثل لك بامثالها لما وسع هذا المختصر بل ولا كل مفصل ، اذ لا نهاية لها ولا حصر لعددها على ان كل مثال وشبيه ليقصر عن معرفة المشبه لانه تعالى منزه عن المثل والشبيه .

ولكن إنما يلجأ العلماء والحكماء من الناس الى الامثال والتشبيهات لا ليكون تشبيها حقيقياً ولكن ليقود العقل الى معرفة الخالق معرفة اقرار لا معرفة احاطة هذا والقرآن الكريم يصرح بقوله :

(ولا تضربوا لله الامثال ان الله يعلم وانتم لا تعلمون) .

العقول تختلف في إدراكها

قال الامام عليه السلام : فان قالوا : ولم تختلف فيه ؟ قيل لهم لقصر الاوهام عن مدى عظمته وتعديها اقدارها في طلب معرفته . وانها تروم الاحاطة وهي تعجز عن ذلك وما دونه . فمن ذلك الشمس التي نراها تطلع على العالم ولا يوقف على حقيقة امرها . ولذلك كثرت

لا زال المعترض المكابر ينتقد دون روية ويوجد الشبه لمجرد كونه انتقاداً عناداً منه واستكباراً .

فيقول : لماذا يختلف العقل في معرفته لله تعالى وهو شيء واحد ووسائط ادراكه واحدة وهي الحواس الظاهره والباطنه .

فيقال له : ان ذلك لم يكن الا لقصر الاوهام عن مدى عظمته تعالى وتعديها حدود اقدارها وتجاوزها مقدورها في طلب المعرفة اذ تروم الاحاطة بمعرفة الذات والصفات مع عجزها عن نيل ذلك بل لقصورها عن الوصول الى دون ذلك فضلا عن ادراكه .

فمثلا انا نرى الشمس التي تطلع على العالم كل يوم منذ خلقت حتى يوم الناس هذا وهي ظاهرة لكل عين في كل جيل وكل زمان، والكل يعرفها انها منبع النور ومبعث القوة والنشاط في العالم بل لولاها لم تنبت الارض ولم يحصل الناس

الاقاويل فيها واختلف الفلاسفة المذكورون في وصفها . فقال بعضهم هي فلك اجوف مملوء ناراً له فم يجيش بهذا الوهج والشعاع، وقال آخرون هو سحابة . وقال آخرون جسم زجاجي يقل نارية في العالم ويرسل علينا شعاعها . وقال آخرون هو صفو لطيف ينعقد من ماء البحر . وقال آخرون هو اجزاء كثيرة مجتمعة من النار . وقال آخرون

على غذائهم الضروري للحياة .

بل لم يكن العالم عالماً لو لم تكن شمس تشع عليه بالنور والحرارة اللتين بهما تكون الارض ارضاً تسكن والانسان كائناً حياً يتمتع بالحياة قوياً نشيطاً .

فهذا القرص المشع في وسط السماء وهذا الكوكب المضيء الموسل باشعة خيراته على البسيطه ومن فيها مع ظهوره ووضوحه لم يقف الانسان على حقيقته ولم يدر ما هو ولذلك اختلفت في معرفته الاراء والاقاويل وتضاربت افكار الفلاسفة والعلماء في وصفه وتعريفه .

فقال بعضهم : ان الشمس فلك اجوف مملوء ناراً ، وله فم يجيش بهذا الوهج والشعاع .

وقال آخر : هو جسم زجاجي يقل نارية في العالم ويرسل عليه شعاعه .

وقال ثالث : هو صفو لطيف ينعقد من ماء البحر (ولا ندري ما معناه)

وقال الرابع : هو أجزاء مجتمعة من النار .

واخيراً قال المحققون من القدماء انها من جوهر خامس غير العناصر الاربعة المعروفة اعني النار والهواء والارض والماء .

هو من جوهر خامس سوى الجواهر الاربعة . ثم اختلفوا في شكلها فقال بعضهم هي بمنزلة الصحيفة العريضة وقال آخرون هي كالكرة المدحرجة وكذلك اختلفوا في مقدارها فزعم بعضهم انها مثل الارض سواء وقال آخرون بل هي اقل من ذلك وقال آخرون بل هي اعظم من الجزيرة العظيمة . وقال اصحاب الهندسة هي اضعاف الارض مائة وسبعين مرة . فني اختلاف هذه الاقاويل منهم في الشمس دليل

اما المتأخرون : فقد اثبتوا بان الشمس غاز منضغط كثيف يتالف من جملة عناصر تشبه عناصر الارض الجامدة الشديدة الصلابة التي صهرتها الحرارة العالية حتى صيرتها غازاً ملتهباً مشعاً بالنور والنار .

ولو لا الجاذبية العظيمة الهائلة التي اودعها صانعها القدير الحكيم فيها والتي منعت اجزاءها من الانتشار والانفلات ، اسالت وساخت ، وعليه فلولاها اي لولا الشمس لما استقام عالم ولا وجدت حياة البته .

هكذا اختلفوا في معرفة حقيقتها والاعجب من ذلك انهم اختلفوا ايضا في شكلها فقال بعضهم هي بمنزلة صفيحة عريضة مدورة تلتهب حرارة وبياضاً فتنعكس على وجه البسيطة .

وقال آخرون هي كالكرة المدحرجة في هذا الفضاء اللانهائي تجري لمستقر لها

اما المتأخرون فقد اثبتوا ايضا بواسطة مراصدهم العظيمة والتلسكوب انها كروية الشكل كاملة التكوير لا صفيحة ولا مدحرجة .

ثم اختلفوا في مقدارها وحجمها فزعم البعض انهـــا مثل الارض حجماً

على انهم لم يقفوا على الحقيقة من امرها فاذا كانت هذه الشمس التي يقع عليها البصر ويدركها الحس قد عجزت العقول عن الوقوف على حقيقتها فكيف بمن لطف عن الحس واستتر عن الوهم .

لا اكبر ولا اصغر بل هما سواء في الحجم .

وادعى غيرهم انها اقل من ذلك اي ان الشمس اصغر من الارض وبالغ القسم الثالث في قوله بانها اكبر من الجزيرة الكبيرة (ولا نعلم ما معنى استعظامه الجزيرة العظيمة بالنسبة للشمس والجزيرة هي جزء من الارض)

واخيراً قال اصحاب الهندسة اي الفلكيون لان كل فلكي في الماضي كان مهندساً : انها اضعاف الارض ماءه وسبعين مرة .

اما المتأخرون اليوم فقد قدروا قطرها بعد اثبات كرويتها بنحو (٨٦٥٢٨٠) ميلا واثبتوا جرمها بما يعادل جرم الارض (١٣١٠٥٠٠٠) مرة .

فتأمل الفرق بين القديم والجديد .

ثم تأمل وانظر ان مثل هذه الشمس الظاهرة للعيان كيف تختلف فيها عقول الفلاسفة وافكار العلماء هذا الاختلاف الكبير في الاقاويل والمزاعم.

ثم بعد كل ذلك لا يصلون الى نتيجة حاسمة او قول معقول .

ولم يقفوا على حقيقة امرها ولم يحيطوا بكنهها وماهيتها مع رؤية العين لها وظهورها للحواس تماماً .

وهذا كله مما يدل دلالة واقعية على عجز العقل البشري عن معرفتها .

فاذا كان العقل المدرك الذي عليه فقط اعتماد الانسان في الاطلاع على

خفايا الامور لم يستطع ان يدرك حقيقة مخلوق محسوس مثله كيف يستطيع ان يدرك ما لطف حتى عن الحس واستتر حتى عن الوهم .

وكيف لا تختلف العقول لدى الناس في ذلك وهي اي العقول بهذه القدرة المحدودة والقصور عن بلوغ ما لم تعط امكان الوصول اليه .

فسبحان من لا تدركه الابصار ولا تحيط بكنهه الافكار .

الله لطف عن مدى ما تبلغه الأوهام

قال عليه السلام : فان قالوا : ولم استتر ؟ قيل لهم لم يستتر بحيلة يخلص اليها كمن يحتجب من الناس بالابواب والستور ، وانما معنى قولنا استتر انه لطف عن مدى ما تبلغه الاوهام كما لطفت النفس وهي خلق

الاستتار هو الاحتجاب عن الانظار ، وبديهي انه لا يحتجب ولا يستتر الا المحسوس المرئي من الاجسام مثل الناس الذين اذا ارادوا الاستتار احتالوا له بوضع الابواب والستور والحواجز لمنع الحواس عن رؤيتهم وكذلك الحيوانات حينما تختفي في المغارات والكهوف .

ولكن المجردات التي لا تدرك بالحواس الظاهره فلا معنى لاحتجابها عن الانظار ولكنها تدرك بالوهم المختص بادراك المعاني وما خفي عن الحواس الظاهرة اما الله تعالى الذي لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير قد ارتفع وجل عن ان يرى بالعيون اذ لم يكن جسماً محسوساً ليدرك بالحواس الظاهرة .

ولا هو من المجردات التي يشعر بها الوهم ليدرك بالحواس الباطنه ، فجاز لنا ان نقول انه استتر وارتفع ولطف عن مدى ما تبلغه الاوهام ، اذ هو شيء لا كالاشياء ، خالق كل مخلوق ، وصانع غير مصنوع وواجب غير حادث ، قد

من خلقه وارتفعت عن ادراكها بالنظر .

جل عن مشابهة مخلوقاته .

والمراد هنا من لطف اي ارتفع وتعالى عن ان تبلغ الاوهام معرفته ووصفه : ولتقريب للمعنى الى الاذهان شبه الامام عليه السلام ذلك بالنفس المجردة التي لطفت وارتفعت عن ان تدرك بالنظر على انها خلق من خلق الله العظيم .

فكيف بصانعها المبدع الذي خلق نفس الحواس المدركة الظاهرة والباطنة ، وخلق العقل وما يميزه من دقيق المعاني وجليل المباني .

فتعالى عما يقول الجاهلون علواً كبيراً .

الله متعال على كل شيء مباين لكل شيء

قال عليه السلام : فان قالوا : ولم لطف ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، كان ذلك خطأ من القول لانه لا يليق بالذى هو خالق كل شيء الا ان يكون مباينا لكل شيء متعاليا على كل شيء سبحانه و تعالى

فان قالوا : كيف يعقل ان يكون مباينا لكل شيء متعالياً قيل لهم: الحق الذى نطلب معرفته من الاشياء هو اربعة اوجه فاولها ان ينظر

قد تصل الصلافة والمكابرة بالجاهل الى ان يتكلم بما لا يتعقل وينتقد بما لا معنى له ، فانظر لتجده بعد ان قيل له ان الله تعالى قد استتر عن مخلوقاته ولطف اي ارتفع عن مدارك الاوهام يعود فيقول ولماذا لطف ؟ وهذا قول تعالى الباري عنه لانه مسخف من الكلام وخطأ من القول لا ينطق به عاقل لانه لا يليق بالذى هو خالق كل شيء ان يشابه خلقه وان لا يكون مباينا لكل شيء متعالياً على كل شيء .

قال تعالى (ليس كمثله شيء) اي ليس شيء مثله (والكاف زائدة لتأكيد النفي) ومعنى ذلك ان لو قدر ان يكون لله شبيه او نظير او مثل فلابد وان لا يكون لذلك المثل مثل والا لتعددت الامثال وبتعددها تتعدد الآلهة .

وقد ثبت بالادلة القاطعة انه تعالى قد تفرد بصفات لا يشاركه غيره فيها ،

اموجود هو ام ليس بموجود والثاني ان يعرف ما هو في ذاته وجوهره والثالث ان يعرف كيف هو وما صفته والرابع ان يعلم لماذا هو ولاى علة . فليس من هذه الوجوه شيء يمكن المخلوق ان يعرفه من الخالق حق معرفته غير انه موجود فقط ، فاذا قلنا وكيف وما هو فمتنع علم كنهه وكمال المعرفة به واما لماذا فساقط فى صفة الخالق لانه جل ثناؤه علة كل شيء وليس شيء بعلة له . ثم ليس علم الانسان بانه موجود

وهنا لابد لنظيره او مثله ان يتفرد ايضا بصفات لا يشاركه فيها غيره ، فكان هو الله لا غير وهذا مستحيل لانه قد دل الدليل العقلى والنقـــلى والفطري والوجدانى على ان ليس مع الله شريك ابداً قال تعالى (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) .

اذاً فهو واحد في ذاته وصفاته مباين لكل شيء وليس كمثله شيء .

اما كونه متعالياً ومعناه المقتدر على وجه يستحيل ان يساويه غيره والعالى بقدرته فلا يساويه قادر .

كما ان معنى الكبير فى قوله تعالى (الكبير المتعال) هو انه قد كبر عن شبه المخلوقين ، فكيف على هذا لاَ يكون تعالى مباينا لمن خلق متعالياً على كل شيء سواه . ثم بعد ان يجاب هذا المنتقد وبعد ثبوت خطاه في قوله السابق يعود فيقول : كيف يعقل ان يكون مبايناً متعاليا ، فيجاب ايضا نزولا الى مستواه ومجاراة لعقليته : ان الحق الذى تطلب معرفته لا يخلو عقلا من وجوه اربعة اولها ان تحققه اهو موجود ام ليس بموجود ثانيا ان تعرفه ماهو بذاته وجوهره

يوجب له ان يعلم ما هو وكيف هو . كما ان علمه بوجود النفس لا يوجب ان يعلم ما هي وكيف هي وكذلك الامور الروحانية اللطيفة .

اي بكنهه وحقيقته ثالثا ان تعرف ما صفته رابعاً ان تعرف لماذا وجد ولاى علة . وكل هذه الوجوه الاربعة مستحيلة للمخلوق ان يعرفها فى الخالق حتى المعرفة التامة إلا الوجه الاول وهو انه موجود فقط ذلك لانه يمتنع على العقل ان يدرك كنهه ويعرفه معرفة كاملة ، كما يستحيل ان يعرف لوجوده علة ، اذ انه تعالى هو علة كل شيء والعلة لا تكون معلولة .

والعلم بوجوده لا يوجب العلم بانه ما هو وكيف هو فليس هذا مما يستطيعه الانسان ولا يكلف الله نفساً الا وسعها .

وهذا المعنى لا غرابة فيه اذا ما نظرنا الى النفس التي هى خلق من خلق الله فانا نعلم بوجودها يقيناً مع ان العلم بها لا يوجب علينا ان نعرف كنهها او ان نحيط بحقيقتها .

ومثلها كثير من المجردات والامور الروحانية اللطيفة المحسوسة بالحواس وغير المحسوسة ايضا . فانها كلها مع العلم الكامل بوجودها لا ندرك حقائقها ولا كنهها والحال انها مخلوقة مثلنا ومدركه ولو فى عالم الخيال والوهم .

فسبحان اللطيف الخبير

الله أقرب من كل قريب

قال عليه السلام : فان قالوا : فانتم الآن تصفون قصور العلم عنه وصفاً حتى كانه غير معلوم قيل لهم هو كذلك من جهة اذا رام العقل معرفة كنهه والاحاطة به ، وهو من جهة اخرى اقرب من كل قريب

أقول : واما لم يجد المتقدمون مجالا لاعتراضاتهم وشبهاتهم وقد سدت عليهم الابواب ، وكانهم بعد تلك المقدمات والاجوبة لم يقنعوا بها او إنهم لم يدركوا جلية الامر اما جهلا او عناداً ومكابرة .

قيل عنهم : فان قالوا : انتم الآن تصفون الله تعالى لقصور علمكم به وصفاً يظهر منه انكم تصفون مجهولا غير معلوم عندكم ولا واضح لديكم فكيف تصفونه اذاً مع خفائه وعدم وضوحه .

قيل لهم : نعم هو كذلك غير معلوم لدينا بعيد عن ادراكنا غامض لا يدركه العقل اذا ما اراد ان يعرفه معرفة احاطة واكتناه .

اما اذا أستدللنا على وجوده بالدلائل الجلية الشافية والآثار المتقنة الواضحة فانه تعالى اقرب الينا من كل قريب وواضح لا يخفى على كل احد وبعبارة اخرى ان الله تعالى مع غاية ظهوره بآياته وآثاره محتجب مستتر عن خلقه بذاته فلا تدركه الابصار ولا تصل الى كنهه الافكار .

اذا استدل عليه بالدلائل الشافية . فهو من جهة كالواضح لا يخفى على احد وهو من جهة كالنامض لا يدركه احد . وكذلك العقل ايضا ظاهر بشواهده ومستور بذاته .

ولكنه عليه السلام اراد تقريب المعنى الى الاذهان فقال انظروا الى نفس العقل المدرك الذي لم تره ولم تعرف حقيقته ولا ماهيته .

قد عرفناه بشواهده من الاعمال والافعال والاراء في حين انه مستور عنا بجسمه وذاته وهو مخلوق لا خالق .

قال الامام زين العابدين عليه السلام في دعائه يوم عرفه (انت الله لا اله الا انت الدانى في علوه والعالي في دنوه) بمعنى انه تعالى ادنى من كل شيء لنفس الشيء فانه هو الموجد له والعالم به لذلك فهو اقرب اليه من حبل الوريد.

فما ذره من ذرات العالم الا ونور الانوار محيط بها قاهر عليها قريب منها بل اقرب وادنى من وجودها اليها ، فيكون على هذا ظهوره اي دنوه وقربه واضح بهذا الاعتبار .

اما علوه وخفاؤه عن الابصار فذلك لان الوهم الذي يدرك المعاني الدقيقة عاجز بلاريب عن الاطلاع على كيفية نعوته كما هي

وذلك لان وصف الشيء انما يتصور في الوهم اذا كان مطابقا لما عليه الموصوف في نفس الامر .

وهذا لا يكون الا بتعقل ذاته وكنهه ، وان ذلك اى تعقل الحقيقة ادراك ما له من صفات الكمال مستحيل على العقول ، لان ذلك لا يحصل لها الا بحصول صورة مساوية لذاته وصفاته الحقيقية او بحضور ذاته المقدسة بعد مشاهدتها طبعاً

والاول محال اذ لا مثل لذاته اذ ان كل ماله مثل او صورة مساوية له لابد وان يكون ذا ماهية والله تعالى منزه عن الماهية .

والثاني ايضا محال اذ العقول لاجل قصورها عن درجة الكمال الواجبي لن تستطيع ان تتعقل ذاته على وجه الاكتناه والاحاطه لان العقل له مقـــام لا يتعداه الى ما فوقه .

وكيف يتعدى المتناهي الى ادراك ما لا يتناهى .

فسبحان الظاهر بآياته الباهرة الدالة على وحدانيته وربوبيته والمتجلي لبصائر المتفكرين في الآفاق والانفس والباطن المحتجب عن ابصار الناظرين بقدرته وعظمته جل وعلا .

خرافة أصحاب الطبائع

قال عليه السلام : فاما اصحاب الطبائع فقالوا: ان الطبيعة لا تفعل شيئاً لغير معنى ، ولا عما فيه تمام الشيء في طبيعته ، وزعموا ان الحكمة تشهد بذلك .

فقيل لهم : فمن اعطى الطبيعة هذه الحكمة والوقوف على حدود

ان الطبيعيين لا يعترفون بوجود صانع للعالم بل اسندوا خلق هذا العالم كله الى الطبيعة ، وقالوا ان الكون كله مقود بنواميس طبيعية ثابتة لا تتحول بل تخضع لها جميع الكائنات وتسمى هذه النواميس (النواميس الطبعية) وقد نشأت الكائنات على سبيل الصدفة والاتفاق وقد بلغت الكمال من طريق التطورات المتعاقبة ، كما انهم ادعوا ان الفكر والشعور ايضا جاء بنتيجة المادة (الطبيعة) وحدها .

اما العواطف والارادة والميول وامثالها فهي من اعمال المخ ويتوقف مقدارها ونوعها على مقدار المخ وعمله وتركيبه ، وان كل شيء في الحياة اما مادة او مظهر من مظاهر الطبيعة وان هذه الطبيعة لا تفعل شيئا لغير معنى ولا عما فيه تمام الشيء في طبيعته ، وان هذه الحكمة التي نجدها في الخلقة والخلق تشهد لنا على ما نقول .

الاشياء بلا مجاوزة لها ؟ وهذا قد تعجز عنه العقول بعد طول التجارب فان اوجبوا للطبيعة الحكمة والقدرة على مثل هذه الافعال فقد اقروا

وقد قال بعض كبارهم : ان الذين يقولون بوجود قوة خالقه خارجة عن الطبيعة والمادة وانها خلقت العالم من ذاتها او من العدم فهم يناقضون الاصول الاساسية للعلم الطبيعي المؤسس عن التجربة والواقع .

هذا هو مؤدي مذهبهم باختصار !

فنقول لهم : ان هذه الطبيعة التي تنسبتم اليها الحكمة في اعمالها وافعالها واثبتم لها الوقوف على حدود الاشياء بحيث لا تتجاوزها قيد شعره ولا تفعل شيئا بلا معنى الى غيرها من الصفات . اهل كانت الحكمة فيها منذ الازل ام انها اعطيت بعد ظهورها ، واذا كانت معطاة لها فمن اعطاها ؟ على ان العقول الجبارة اتعجز عن ادراك تلك الحكمة وتقف حائرة دون الوصول الى كنهها فان قلتم ان هذه الحكمة والقدرة على مثل هذه الافعال في العالم من لوازم الطبيعة منذ الازل لا تنفك عنها فقد اعترفتم بالصانع الحكيم لان هذه هي صفاته وواجباته وقد سميتموه (طبيعة) وان انكرتم كون تلك الحكمة من لوازم الطبيعة فقد اقررتم بخلاف ما ادعيتم ونقضتم مدعاكم بانفسكم واثبتم بان الطبيعة مخلوقه وأن كل ما صدر عنها من ابداع ونظام من فعل خالقها لا فعل الطبيعة .

قال الاستاذ محمد فريد وجدي في كتابه (على اطلال المذهب المادي) ما مضمونه وهو يسألهم : ما هي تلك المادة (الطبيعة) التي تضمونها هذا الوضع الاعلى من الوجود المطلق فيجيبون : نحن لا نعلم ما هي المادة في ذاتها كما لا نعلم ما هي القوة في ذاتها ، ولكنا نعلم علماً يقينا بانه يوجد شيء يجذب ويدفع ويقاوم ويتحرك

بما انكروا لان هذه هي صفات الخالق وان انكروا ان تكون هـذه للطبيعة فهذا وجه الخلق يهتف بان الفعل للخالق الحكيم .

وينتج ظواهر النور والحرارة الى غيرها وانه في الوقت الذي يزول فيه هـذا الشيء تزول هذه الظواهر معه ، وهذا الشيء هو الذي تسميه (طبيعة او مادة) ونسمي الظواهر المذكورة مظاهرها ونسمي سبب تلك الظواهر (قوي) .

فنقول لهم : فهل يعقل خروج الابداع مما لا يدري ما هو الابداع ،وهل يتصور بروز الحياة من الجماد الميت ثم ما هو الفرق بين المؤمن بان اصل الوجود قوة عاقلة حكيمة ازلية قادرة على كل شيء وبين المادي الطبيعي المعتقد بان اصل الوجود مادة او طبيعة ازلية قادرة على كل شيء .

ثم ان الطبيعة اذا كانت عاقلة حكيمة مدبرة مريدة لبقـــاء الانواع فهي تستحق العبادة وان يتأمل في اثار رحمتها وسعة سلطانها وان يتعجب من شمول علمها واحاطة قدرتها . وان كانت اعجز من ان تعلل ظاهرة واحدة من هذه الظواهر التي لا تحصل فان القائلين بها يستحقون الرحمة لا الرد والانتقاد كما ان شبهتهم هذه تستحق السخرية لا الحل والعناية .

فما احقر هذه الكلمة (الطبيعة) بجانب هذا الابداع العظيم ، وحيال هذه المشاهد الطبيعية المنظمة المتقنة . وما اضيق مدلولها عن تفسير عجائب هذا الخلق وتعليل قيام هذا الوجود المحير لاقوى المدارك .

اقول : وختاماً وبعد معرفة تلك المقدمات والبيانات فهلا تجد اقـوال هؤلاء الجهال الا سخافة وهل مزاعمهم الا خرافة .

لا يغتر بها الا امثالهم من الجاهلين .

إنكار العمد والتدبير في الخلقة

قال عليه السلام : وقد كان من القدماء طائفة انكروا العمد والتدبير في الاشياء، وزعموا ان كونها بالعرض والاتفاق . وكان مما احتجوا به هذه الآيات التي تكون على غير مجرى العرف والعادة كالانسان يولد ناقصاً او زائداً اصبعاً او يكون المولود مشوهاً مبدل

ان الجاهل هو الذي لا يدرك الا ما يراه بعينه او يلمسه بيده ، اما ادراك حكمة وجود الشيء او الشعور بالغاية التي من اجلها حصل هذا الشيء او وضع في محل خاص او صار بشكل معين فذلك من وظائف العقل المميز فقط .

اذاً فلا عجب اذا ما انتقد هذا الجاهل او اعاب وانكر الحكمة ولم يعرف الغاية التي لا يستطيع ان يتصورها ، ولكن العجب ممن يدعى الفلسفة الباحثة عن كنه الامور وحقائقها ان ينكر العمد والقصد والتدبير في الاشياء وينفي الارادة والحكمة في خلقة هذا العالم المليء بالشواهد والعبر زاعماً ان وجوده كان بالعرض والاتفاق والمصادفة .

وحجة هؤلاء الفلاسفة ما يرونه من هذه الايات والحوادث في الخلقة التي تأتي على غير مجرى العرف والعادة مثل الانسان يولد ناقصاً او زائداً اصبعاً او يكون مشوه الخلقة مبدل الخلق ومثل وجود بعض العيون الاثرية التي لا تبصر

الخلق فجعلوا هذا دليلا على كون الاشياء ليست بمعد وتقدير بل بالعرض كيف ما اتفق ان تكون . وقد رد عليهم ارسطاطاليس فقال ان الذى يكون بالعرض والاتفاق انما هـــو شيء يأتى بالفرط مرة

فى بعض الحيوانات التى تقطن الكهوف او تحت الارض ومثل وجود زوج من الاطراف ضامراً فى حيوانات اخرى كبعض الحيات وإمثالها .

فيقولون انه لو كان هناك خالق حكيم لما اوجد مثل هذه الاشياء التى لا حاجة فيها ولا نفع ، بل هى مخالفة للحكمة والعقل ، وعليه فوجود هذه الاشياء المخالفة دليل على ان كون الاشياء لم يكن عن عمد وارادة وتقدير بل بالعرض وكيفما اتفق .

وقد كانت هذه الفرقة من الفلاسفة ظاهرة فى عصر الفيلسوف الحكيـــم ارسطاطاليس ، وكانت تعلن بان القول بوجود اصل روحاني وانه هو الذي اوجد المادة وهذا وهم لا قيمة فلسفية له ، بل وجد العالم بالمصادفة .

فرد عليهم ارسطاطاليس بقوله : ان الذي يكون بالعرض والاتفاق انما هو شيء يأتى بالفرط مرة اي احيانا لا تقصيراً في العمل المنظم الجـاري ولا مجاوزة للقانون والسنة وذلك لاعراض تعرض للطبيعة الكونية السائرة فى طريق مستقيم خط لها فى اعمالها وهذا الطارىء العارض قد يزيلها عن سبيلها ويخـل بعملها المنظم ، وليس ذلك من لوازم نفس الطبيعة او بمنزلة الامور الطبيعية الجارية على شكل واحد جرياً دائماً متتابعاً وان ما ترونه من تغيير واختلاف فى منتجات الطبيعة احيانا لا يدل البته على نفى حكمه الخالق او يستلزم انكار الصانع الحكيم فانه تعالى احسن الخالقين .

لاعراض تعرض الطبيعة فتزيلها عن سبيلها . وليس بمنزلة الامور الطبيعة الجارية على شكل واحد جرياً دائماً متتابعاً .

اقول : وقد بقيت هذه الفكرة السخيفة السقيمة تذكو وتخبو في افكار بعض الناس حتى ظهر مذهب (دارون) المادى القائل بالنشو والارتقاء وبقاء الاصلح ، فتبعه كثير من مدعى الفلسفة والذين كانوا يرون رأيه امثال الدكتور شيلى شميل الذي اصبح من زعماء هذا المذهب في الشرق :

قال فى كتابه (مذهب النشو والارتقاء) كما نقله الاستاذ محمد فريد وجدى عنه نقتطف منه محل الحاجة :

قال : اما المأمه (يقصد المجادل له) الى الغسابة والقصد فنقوض بما في الحيوانات والنباتات من الاعضاء الزائدة التى يسمونها اثرية والتى لافائدة فيها مثل الانسان القواطع فى اجنة كثير من الحيوانات المجترة ، وهى فى عنى عنها فما الفائدة في وجودها والانسان في غنى عن تحريك اذنيه فما الفائدة فى تحريكها الى امثلة كثيرة غيرها .

(الى ان يقول) وان ما تراه من النظام فهو كذلك ضروري لا مقصود فاذا كانت العوالم موجودة على النظام الذي نراه عليه فلانها هى من الارتباط بعضها ببعض بحيث لا يمكن ان تكون على خلاف ذلك ، فلو تغير نظام احدها لوجب ان يكون التغيير شاملا لعموم النظام ، وكذلك يقال فى الارتقاء ، فان العالم لا يسير الا متقدماً لضرورة تغلب الانسب فى منازعة هذا الوجود كما هو مقرر فى مذهب دارون .

قال الاستاذ فريد وجدي راداً نلتقط منه :

اذا كان الامر كما تزعمون فلماذا كان الكون فى مبدأه منتظماً حتى اقتضى الحال ان يجرى كل تغيير فى جزء من اجزائه الى تغيير في مجموعه على حكم الضرورة ولم يكن فى مبدأه خبطا وخلطا وفوضى مستحكمة حتى يؤدى كل تغيير فى جزء من اجزائه الى اضطراب لا يتناهى وارتباطات لا تقف عند حد ، ثم لماذا تتجه الضرورة دائماً الى الوجهة المتجه للابداع المثمر العمران ، ولا تتجه الى خطة الخسف والعسف فتنتج الدمار والفناء وتثمر الانحلال والتلاشى الى غير هذا من العبر فى الابداع والانتظام ، الا ترى في كل هذا اثاراً للقصد ودلائل للارادة واختيار مبدع حكيم .

قال العلامة (لوجيل) الافرنسى في ردهم بقوله : نحن لانعلم ولاّ نرى الا الظواهر والقشور ، اما الحقيقة والعلة فتأبيان ان ينكشفـــا لنا ، وانه ليحق لفلسفة عاليه ان تعتبر كل القوى الخاصة التى افاعيلها قد تحللت بالعلوم المختلفة صادرة عن قوة اولية ابدية واجبة الوجود وهي مصدر كل حركة ومركز كل عمل

وقال الاستاذ وجدى ايضا : ليت شعري ما هذه الضرورة (الطبيعة) التى تهب لكل محتاج حاجته ، وتلهم كل حى ما به حياته وبقاؤه . اهي عاقلة مدركة ام عمياء بكماء صماء ، اهي كلمة فارغة ام الهة مدركه تقصد عمارية الكون وبقاءه فان كان كل هذا لا يدل على القصد ، ولا يشعر بارادة عاقلة في الكون بل مجرد الضرورة والحاجة ، فهل هى التى ارادت بقاء النوع فخلقت الذكر والانثى وجعلت فى كل جنس ميلا فطريا للاخر ، وجعلت احدهما حامـــلا للجراثيم المنتجة والاخر وعاء لما يحملها فى احشائه ويغذوها بدمه حتى تستوفى حياتها الجنينية ، ثم اعدت لها انداء تمدها بالغذاء الخالص الى ان تشب وتترعرع

واودعت صدري الابوين من الحنان والرحمة ما يضطرهما الى تربية صغارهما واعدادها للحياة وهل هي التي ادركت ان دوام النوع لا يكون الا بايجاد انثى بجانب الذكر تشابهه في التركيب الظاهري وتخالفه في التركيب الباطني فاعدت لكل منهما الاعضاء اللازمة للتوليد ، ثم ادركت ان تقاربهما لا يمكن ان يكون بمجرد عاطفة حفظ النوع بل لابد من وسيلة اخرى تجعل اتصالهما محتماً عليهما فخلقت لكل منهما لذة في ذلك الاتصال ليكون واقعاً لا محالة مهما اعترضهما من العوائق ، فاخذ احدهما ينجذب الى الاخر طلباً لتلك اللذة وتوفية لتلك الحاجة ليتم التلقيح وان لم يريداه ولم يسعيا اليه .

فان كانت هي التي فعلت ذلك فهي عاقلة مدبرة حكيمة مريدة لبقاء الانواع تستحق ان تعبد وهي الله الخالق الحكيم ،

الى غير ذلك من الاجوبة والردود العقلية والنقلية والفطرية لهذه الفكرة السخيفة الصبيانية التي وان لم تحتج الى رد او جدل أو عناية واهتمام ولكن شيوعها لدى العامة من ذوي العقول الناقصة الزم العلماء وذوي العقول السليمة ان يعتنوا بالرد وبيان خطل القوم وضآلة افكارهم وآرائهم الفاسدة .

فتأمل ولا تنجرف مع تيار المياه الآسنة القذرة .

رد على منكري القصد في الخلقة

قال عليه السلام : وانت يامفضل ترى اصناف الحيوان ان يجرى اكثر ذلك على مثال واحد ومنهاج واحد كالانسان يولد وله يدان ورجلان وخمسة اصابع كما عليه الجمهور من الناس ، فاما ما يولد على خلاف ذلك فانه لعلة تكون في الرحم او في المادة التي ينشأ منها الجنين ، كما يعرض في الصناعات حين يتعمد الصانع الصواب في صنعته فيعوق دون ذلك

وهنا اجاب الامام عليه السلام رادا زعم منكرى العمد والقصد في الاشياء من القدماء الذين نسبوا خلق الكون الى الاهمال والاتفاق بعد ذكر رد ارسطاطاليس لهم .

فقال مخاطبا تلميذه المفضل : ان الامر من الوضوح والجلاء بحيث لايحتاج الى شرح و بيان ، فانك ترى وغيرك يرى ان اصناف الحيوان بما فيه الانسان تسير غالبا وعلى الاكثر فى وضع خلقتها وكيفية مواليدها واشكال اعضائهـــا وهياكلها الجسمية على مثال واحد لا يتغير ولا يتبدل (سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) فقد اقتضت الطبيعة الكونية فى جمهور الناس والحيوان ان يولد الانسان مثلا وله يدان ورجلان وخمسة اصابع .

اما اذا حصل ما يولد على خلاف ذلك بمعنى ان يكون مشوه الخلقة او

عائق في الاداة او في الآلة التي يعمل فيها الشيء فقد يحدث مثل ذلك في اولاد الحيوان للاسباب التي وصفنا فيأتي الولد زائداً او ناقصاً او مشوهاً ويسلم اكثرها فيأتي سوياً لا علة فيه ، فكما ان الذي يحدث في بعض اعمال

ذاستة اصابع او اربعة او ذا رأسين وامثال ذلك فما هو الاعن علة وجدت في نفس الرحم او في المادة التي ينشأ منها الجنين (المني) فاوجبت هذا التغيير غير الطبيعي ـ وهذا لا يحصل الا نادراً ـ فـــلايوجب ذلك ان ينسب الى نفس الطبيعة الخلقية الجارية على نظام مستمر متقن وتدبير حكيم من مدبر حكيم .

وهذا الامر عادي عرفي نجده يعرض لا كثر الصنـــاعات البشرية على الاغلب اذ نرى ان الصانع في العمل او اي مهندس في صنعته يتعمد قاصداً ويجتهد مريداً لان يكون الصواب في عمله بكل دقة وعناية ولكن قد يعوق ذلك الصواب عائق من اختلال في الاداة او خلـــل في الآلة التي يعمل فيها الشيء المطلوب ، فلا يكون عمله مصيباً كما كان يريد .

فهل من الحق ان تنسب ما تراه من الخطا والخلل في صناعة العمل او نفس العمل الحادث فيه من خلل الآلة او الاداة الى الاهمال والاتفاق او ان تنكر في هذه الحال وجود صانع او مهندس في ذلك العمل اراد الصواب وعاقه الخلل الذي عرض لعمله دون ارادة منه لذلك .

فان كان مثل ذلك لم يثبت في العـامل البشرية التي هي اقرب الى الخطأ والاهمال والاختلال .

كان بالاحرى ان لا يثبت في الاعمال الطبيعية الكونية التي تحدث احيانا لعائق يدخل عليها في الرحم او المادة المنوية ذات الحويـنات المنتجة للجنين فتأتي

الاعراض لعلة فيه لا يوجب عليها جميعاً الا همال وعدم قصد الصانع كذلك ما يحدث على بعض الافعال الطبيعية لعائق يدخل عليها لا يوجب ان يكون جميعها بالعرض والاتفاق ، فقول من قال في الاشياء ان كونها

بخلاف العرف والعادة .

وعليه فليس انكار القصد في الخلقة وزعم الاهمال فيها دون روية وتعقل إلا خطأ وخطل في الزعم والقول ، بل لا ينبغي العناية لضآلته .

اقول : واليك بعض اقوال علماء هذا العصر تاكيداً وتاييداً لقول الامام عليه السلام :

قال الأستاذ (الياس الفضبان) في كتابه (قانون الزواج) :

اما تشوه الخلقة واختباط التركيب (اي مجيء المواليد على غير النحو الطبيعي على اتساق) وشوائب الجسم ونقص بعض الاطراف وشواذ الخلق فقد تنتقل بالوراثة ، وإن الشواهد على الاشخاص من ذوي الاصابع الستة ليست هي بالامر النادر في الذين يخلفون اولاداً على شاكلتهم .

وقال في موضع آخر :

لقد نسبوا في كل عصر من العصور الى مخيلة الحامل سلطة قوية على جنينها بمعنى ان تصور الام وافكارها في امكانه ان يزيد وينقص او يعدل او يغير او يقطع او يفقد بعض اعضاء الجنين او يغير شكلها ، حتى نسب بعضهم القول الى افلاطون الحكيم اليوناني الشهير .

وذكروا لذلك حوادث كثيرة مكبرة تكاد لا تصدق ، ولكن بعد ان اكتشف علم (التيراتوجنيزيا) اي علم (تكون شواذ الخلق) اثبت على الاجمال ان

بالعرض والاتفاق من قبيل ان شيئا منها يأتي على خلاف الطبيعة يعرض بعرض له ، خطأ وخطل .

تصورات الأم الحامل وافكارها المحدودة وساير حركات النفس الهيامية قد تعجل او تؤخر او تكيف وظائف الاعضاء وعلى الاخص وظائف الآلة الرحية

ومن المعلوم ان الافكار مطلقاً تؤثر وتفعل في بنيتنا تغييرات مختلفة فهي تنمي بعض الافرازات وتحدد بعض الحركات وتولد بعض الاحساسات .

وهنا من الجائز انها اذا تسلطت على بنية المرأة الحامل ان تكيف شكل الجنين ولكن بشرط ان يطول الفكر والتصور بقوة مع سهولة تكيف الجنين نفسه وقد ذكروا من الاسباب المؤثرة في الجنين فكرية وخارجية ما نذكر بعضها مجملا :

(١) الضغط الدائم للملابس على المعدة .

(٢) سقطات الام الحامل .

(٣) المخاوف الفجائية .

(٤) الضرب على المعدة .

(٥) الانفعالات الشديدة مفرحة كانت ام محزنة .

(٦) التشنجات القوية .

(٧) الامراض الزهرية بانواعها من الرجل والمرأة .

(٨) التصورات الغرامية .

(٩) بعض الامراض الرحية .

(١٠) الوراثة .

هذه كلها او بعضها قد تحدث فتحدث توقفاً في نمو الجنين او بقعاً مختلفة

الطبيعة تسير وراء الحكمة والتقدير

قال عليه السلام . فان قالوا : ولم صار مثل هذا يحدث في الاشياء.

قيل لهم : ليعلم انه ليس كون الاشياء باضطرار الطبيعة ولا يمكن ان يكون سواه . كما قال القائلون بل هو تقدير وعمد من خالق حكيم اذ جعل الطبيعة تجري اكثر ذلك على مجرى ومنهاج معروف ويزول

فان قال المعترضون انا بعد ان سلمنا بوجود خالق للكون قادر حكيم عالم مدبر وبعدان اعترفنا انه هو الذي جعل الطبيعة الكونية تسير على نظام خاص معتدل متقن في هذا العالم لا تزل عن خط سيرها ولا تحيد عما خلقت لاجله .

نقول اذا سلمنا بذلك كله فانا نسأل :لماذا صار يحدث مثل هذا في الاشياء وهو خلاف للنظام المستقيم وسير الطبيعة المستمر في نظامه واستقامته .

قيل لهم : ان ما يحدث في الاشياء مما ترونه مخالفا للحكمة في نظركم وغير موافق لعمل الطبيعة المضطرة في سيرها وسيرتها في طريقها المنتظم المستقيم ليس إلا ليعلم الناس اذا عاينوا هذه الحوادث ، ان كون الاشياء في هذا العالم لم يكن باضطرار الطبيعة ، اى انها لم تكن مضطرة على اجراء افعالها ولا مجبورة على انجاز اعمالها بالقسر والقوة والاكراه بحيث لا يمكن ان يكون سواه كما قالت المعطلة بل هو تقدير مقدر خبير وعن ارادة وقصد من خالق حكيم ، هو الذى

احيانا من ذلك لاعراض تعرض لها فيستدل بذلك على انها مصرفة مدبرة فقيرة الى ابداء الخالق وقدرته في بلوغ غايتها واتمام عملها تبارك الله احسن الخالقين .

اراد فجعل الطبيعة تجرى على مجرى مستقيم وهو الذى شاء فسيرها على منهاج معروف ثم اقتضت حكمته ان تزول احيانا عن ذلك المجرى فنحدث امثال ما ترون من مخالفات العادة والعرف فى نظركم وهي في الحقيقة لم تحـــدث الا لاسباب يوجدها الخالق لحكمة اقتضاها لصالح عباده ، فتعرض عليها عوارض توجبها اما الحكمة فى وقوع امثال هذه الامور المخالفة للنظام الظاهرى ، فهى لكى يستدل محدوثها افهاماً للناس بان الطبيعة هذه ليست هي المدبرة الموجدة كما زعم الطبيعيون بل هى مخلوقة متصرف فيها جارعليهـــا التدبير والتقدير فقيرة محتاجة لا بداء ارادة الخالق والاستعانة بقدرته على بلوغ غايتها واتمام عملها وعلى انها مغلوبة على امرها لا قدرة لها على شيء ولا حول ولا قوة لها استقلالا الا بارادة صانعها القدير الحكيم .

فهى عاجزة عن ايجاد او افناء وعن اعزاز او اذلال او تقوية او اضعاف فتبارك الله احسن الخالقين الذى لا تفاوت فى خلقه بل انه قدر فخلق وصنع فاحسن وبرأ فابدع واوجد فاتقن له الخلق والامر كله سبحانه ما اعظم شانه ،

خاتمة المجالس الأربعة

ولما اكمل الامام عليه السلام حديثه الذى كان يمليه على المفضل بن عمر فى اليوم الرابع ، وعندما انهى ما كان يريد افهامه اياه من دلائل التوحيد وشواهد الحكمة وآيات القصد والعمد في الخلقة ، رادا مزاعم الملاحدة والمعطلين والمبتدعة والطبيعيين ، في نسبة الخلق الى المصادفة والاهمال .

وذلك ليستعين اي المفضل على اثبات عقيدته بنفسه ثم ليقوى على رد من كان يبتلي بهم من ملاحدة عصره الذين كثيرا ما كانوا يلاقونه بالانتقادات والاعتراضات والشبهات الواهية السخيفة ، كما مر عليك في الاجزاء الثلاثة المتقدمة

وهذا الجزء الاخير الذى هو بين يديك ، قال عليه السلام :

يامفضل خذ ما اثبتك واحفظ ما منحتك اى تلق ما امليته عليك بكل توجه ووعى واقبال واحفظ فى قلبك ما اعطيتك اياه وخصصتك به دون سواك وكن لربك من الشاكرين على ما وفقك اليه من معرفه الحكم والانماط بمثل هذه العبر والشواهد الجلية التي دلت على توحيده واثبتت اعتقادك وايمانك كما عليك ان تكون لالائه من الحامدين فان التوفيق للحصول على مثل هذه النعم الجليلة لما يغتبط عليها فالواجب ان تحمد الله على تلك الآلاء والنعم ثم كن من اوليائه المطيعين فلقد قال الله تعالى في كتابه العزيز (اطيعوا الله واطيعوا

. . . . . .

الرسول واولى الامر منكم) ومما لا ريب فيه ان اولى الامر منا هم اولياؤه وخلفاء الرسول من بعده فمن اطاعهم نجا ومن عصاهم هلك .

هكذا كانت وصية الامام عليه السلام لتلميذه المفضل بعد انهاء املائه عليه فى هذا المجلس الرابع .

ثم قال عليه السلام له مبيناً مجمل ما كان شرحه له وملخص ما املاه في تلك المجالس الاربعة فى الايام الاربعة .

فقد شرحت لك من الادلة على الخلق والشواهد على صواب التقدير والتدبير والعمد قليلا من كثير وجزأ من كل ،

وهذا هو غاية ما تتحمله العقول المحدودة ونهاية ما تصل اليه الافكار الجبارة فانها مهما ارتقت ومهما صقلت بالتجربة والعلوم ان تستطيع ان تبلغ مدى تلك الايات والادلة والشواهد او ان تحدها كما هى او كما تريد وكيف تستطيع وفي كل شيء له آية تدل على انه واحد ، ولكن الله تعالى من باب اللطف بعباده لا يكلف نفساً الا وسعها علماً منه بمحدودية ادراك العقول وقرب مرماها بالنسبة الى مقامه وارتفاع جلالته .

ولذلك فقد امرنا بالتفكر بالافاق والانفس المحسوستين لنا لكى نعرف الله باثاره وندركه بالبصيرة لا بالبصر ومن هنا .

قال الإمام عليه السلام فتدبر وفكر فيه واعتبر به اى فتدبر ما امليته عليك وفكر فيما شرحته لك واعتبر بما عرفته من الخبر والحكم فذلك غاية ما يطلب منك وخلاصة ما تؤمر به من معرفة الله تعالى .

. . . . . .

قال الفضل فقلت بمعونتك يامولاى اقر على ذلك وابلغه ان شاء الله اى لو لا معونتك ومساعدتك لى يامولاى فى هذا الشرح وهذا البيان لم اكن احصل على هذه النعم المشكورة ولم اوفق لمعرفتها .

والان فانى اقر على ذلك فى قرارة نفسى وسوف ابلغه غيرى من اخواني المسلمين وارد بها على غيرنا من الملحدين والمعطلين ان شاء الله تعالى لاكون بذلك قد شكرت الله وشكرتك .

فوضع يده على صدرى ليدعو لى الله تعالى فقال احفظ بمشيئة الله ولاتنس انشاء الله فخررت مغشياً على من شدة سرورى وفرط فرحى بما اولانيه سيدى من الرفق والاحسان بهذا الدعاء المستجاب من امام معصوم مطاع ، والذى قوى به ايماني بالله وثبت به اعتقادى برسالة الاسلام واشتد به ولائي للنبي (ص) وآله عليهم السلام .

فلما افقت من نشوتي وثاب الى رشدى قال عليه السلام كيف ترى نفسك يافضل اى كيف تجد قلبك وسكونه واطمينانه بما القى اليك وما سمعته ومما كتبته فقلت قد استغنيت بمعونة مولاى وتاييده من الكتاب الذى كتبته حيث ارانى قد استظهرت جميع ما رقمته ولم انس منه شيئا وصار ذلك بين يدى كانما اقراه من كفى لا احتاج الى ان افتح الكتاب واستمليه حتى انى اتلوه الان على ظهر قلبي ومن كفى فلمولاى الحمد والشكر كما هو اهله ومستحقه اى فلله

. . . . . .

مولاى الحمد والشكر كماهو اهله فانى عاجز عن اداء واجب شكره كما هو مستحقه

فقال عليه السلام فرغ قلبك من شوائب الشبه والمعتقدات الفاسدة الكاسدة

واجعله خالصاً لله تعالى ليمتلى ايمانا به واخلاصاً له واجمع اليك ذهنك وعقلك

وطمانينتك اي فاستعمل ذكاءك وفطنتك وراجع عقلك ليردع نفسك عن

هواها وينظر الى عواقب امورك لكيلا تزل قدمك .

ثم لا تقلق فى امورك واجعل نفسك هادئة ساكنة مطمئنة ليقوى قلبك

بالايمان وتضعف شهواتك وميولك الى هوى النفس وعواطفها لتتوجه بكليتك

الى الاخرة معرضاً عن زخارف الدنيا وبهارجها ومباهجها ومغرياتها فاذا بلغت ذلك

فسالقى اليك من علم ملكوت السموات والارض وما خلق الله بينهما وفيهما

اي سأملى عليك من معرفة عظمة الله وعزته وسلطانه وملكوته فى السموات

السبع والارضين السبع بيان ما خلق فيهما وبينهما من ملائكة وانس وجن

وجماد ونبات .

ومن عجائب خلقه الدالة على قدرته الواسعة وحكمته الباهرة فى ابداع الخلقه

واتقان الصنعة واصناف الملائكة وهم خلق من خلق الله اجسامهم لطيفة

ونورانية كاملة في العلم والقدرة على اداء ما يؤمرون به من العبادات والاعمال

الصالحة .

فقد جبلوا على الطاعة لا يعصون الله ما يامرهم ويفعلون ما يؤمرون وهم

كما تذكرهم الكتب الدينية اصناف فمنهم رسل الله الى الانبياء ومنهم من عمله التسبيح

. . . . . .

والتقديس ليلا ونهاراً ومنهم من يستغفرون بامر الله للمطيعين وعاملي الخير من الناس ومنهم من وكل بالانسان ليحفظه او يرشده او يساعده الى كثير من الاصناف التي لا يعلمها إلا الله والراسخون في العلم .

ثم قال عليه السلام كما بين لك صفوفهم ومقاماتهم ومراتبهم الى سدرة المنتهى التي هي (كما في مجمع البحرين) شجرة على يمين العرش فوق السماء السابعة ينتهي اليها علم كل ملك .

قيل انها انما سميت سدرة المنتهى حيث اليها ينتهي ما يعرج الى السماء وما يهبط من فوقها من امر الله تعالى .

وقيل اليها ينتهي ما يهبط به من فوقها ويقبض منها ، واليه ينتهي مايعرج من الارواح ويقبض منها .

وهذه الشجرة هي التي اليها تنتهي الملائكة في مراتبهم ومقاماتهم . وقيل هي شجرة طوبى .

قال عليه السلام وسائر الخلق من الجن والانس اي وسألقى عليك ايضا اصناف الخلق من جن وانس وانواعهم واختلافهم من فوق ظهر البسيطة الى الارض السابعة السفلى وتحت الثرى .

اي كل ما يسكن جوف الارض من المخلوق لكي تدرك عظمة الخالق وحكمة الصانع وعلم الباريء وسلطنة المالك المطلق رب العالمين حتى يكون ما وعينه جزءاً من اجزاء وغيضاً من فيض وقليلا من كثير وقطرة من بحر

. . . . . .

عظمته وجبروته جل وعلا .

والان انصرف اذا شئت مصاحباً للسلامة والعافية مكلوءاً محفوظاً بعين عناية الله فانت منا بالمكان الرفيع لانك سمعت فوعيت ووعيت فاعتبرت حتى وضح لك الحق فآمنت وواليت وعرفت الباطل فعـــاديت لذلك اصبحت وموضعك من قلوب المؤمنين موضع الماء من الصدى يتلهفون لرؤيتك ويطلبون الاجتماع بك للاستفادة منك وختاماً لاتسألن عما اوعدتك حتى احدث لك منه ذكرا .

والسلام على من اتبع الهدى :

قال الفضل فانصرفت من عند مولاى بما لم ينصرف احد بمثله . وآخر دعوانا الحمد لله رب العالمين .

والصلاة على محمد صلى الله عليه وآله وعلى آله الطاهرين وصحبه اليامين .

مسك الختام

في

إضمامة من حياة الإمام عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

ان اعاظم الرجال في العالم والشخصيات الفذه التى المت بنبوغها وجلائل افعالها واشتهرت بارائها الصائبة وخبرتها الواسعة .

هم الذين اوجدوا التاريخ وجعلوا الكتاب والمؤرخين مضطرين لذكر اعمالهم الجبارة وتخليد اثارهم العظيمة النافعة لتكون سيرتهم المثلى نبراساً يهتدى به الخلف ويسير على منهاجها من يأتى بعدهم من الناس ، لينالوا سعادة الحياة على ضوء خبرتهم ويصلوا الى هدف الانسانية بتعاليمهم الرشيدة وارائهم الصائبة هذا اذا كان هؤلاء الرجال ممن خبروا الحياة الدنيوية وعرفوا سبل الهناء والراحة فيها .

اما ذووا الرسالات العظمى الذين بعثوا من خالق البشر لاصلاح البشر فهؤلاء هم الذين ارسلوا من الناس ليقودوا الانسان الى سعادة النشأتين ويهدوهم الى صلاح الدنيا والاخرة حيث يتلقون تعاليمهم وارشاداتهم من السماء وتهبط عليهم الاوامر والنواهي من خالق العالم لهداية العالم الى الخير فلا تغادر رسالتهم صغيرة ولا كبيرة من مناحى الحياة الدنيوية والاخروية الا عالجتها تلك

النواميس واصلحتها هاتيك التعاليم الحكيمة باحسن الطرق واقوم السبل .

اجل هكذا كانت الانبياء والرسل منذ الخليقة حتى خاتم الانبياء وسيد المرسلين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله فقد هبطت عليه خاتمة الرسالات وبعث الى العالم بدعوة الاسلام التي هي دين الله الحق (وان الدين عند الله الاسلام) فختمت بها كل الرسالات كما ختم به النبيون ولا نبي بعده ولا نبوة تخلفه الى يوم يبعثون .

اقول هكذا كانت الانبياء يدعون الى الخير والصلاح ويسعون في تقويم البشرية وانتشالهم من هوة الغي والضلال ما داموا هم في قيد الحياة ، فاذا ما اجابوا داعي الله والتحقوا بالرفيق الاعلى اوصوا بمداراة الناس ونشر الدعوة وتعليم الاحكام من يخلفهم من اوصيائهم بامر من الله تعالى وتخصيص من الشارع المقدس .

لان الرسالة أمانة الله لدى الانبياء ووديعة الانبياء عند من يأتمنونه عليها ويرضاه الله ويعينه لهم ليقوم مقامهم في التبليغ ويؤدي الدعوة معصوماً من الخطأ والسهو والنسيان والزلل مطهراً من الرجس تطهيراً .

وعلى هذا جاء النبي الكريم (ص) بدعوة الاسلام وقام باعبائها خير قيام فبلغ وهدي وبشر وانذر وارشد وعلم واصلح واحكم طيلة حيـــاته النبوية الشريفة حتى اذا ما دنا اجله هبط عليه الوحي بقوله .

(يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تبلغ فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ان الله لا يهدي القوم الكافرين) .

فقام في غدير خم عند رجوعه من حجة الوداع الى المدينة مرتقيا حدج الابل وخطب خطبته الخالدة الشهيرة ثم اخذ بيد علي عليه السلام واصعده المرتقى معه

ورفع يده ويد علي بيده حتى بان بياض أبطيهما وقال : ايها الناس الست اولى بكم من انفسكم ؟ قالوا اللهم بلى :

فقال (ص) : ايها الناس من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وإل من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله .

اللهم اشهد فقد بلغت ثم نزل وامر بنصب خيمة خاصة لعلي عليه السلام لتدخل عليه الناس وتبايعه بالخلافة بعد النبي (ص) .

وهكذا فعلوا باجمعهم وبايعوه على ذلك ولكن بعد ثلاثة اشهر اذ فقد النبي الكريم (ص) كان ما كان وحدث ما حدث .

وعلى كل حال فقد قام علي عليه السلام بوصايته وخلافته الباطنية من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وبث احكام الدين مدة خمسة وعشرين سنة وبخلافته الظاهرية مدة خمس سنين تقريباً حتى اذا استشهد اوصى ولده الحسن عليه السلام ثم اوصى الحسن اخاه الحسين عليه السلام واوصى الحسين عليه السلام ولده علي زين العابدين واوصى السجاد ولده الباقر عليه السلام حتى اذا ما وافى الامام الباقر عليه السلام اجله اوصى ولده الصادق عليه السلام وكلفه الاخذ باعباء نشر الاحكام الدينية وحفظ الشريعة المحمدية .

وهكذا اوصى الامام الصادق عليه السلام ولده موسى بن جعفر وتعاقبت الامامة من امام الى امام من آل بيت النبي (ص) حتى الإمام المنتظر محمد بن الحسن عليه السلام لكي لا تخلو الارض من حجة لله على الخلق الى ان يأذن الله بخروجه ليملأ الارض قسطاً وعدلا بعد ان تملأ ظلما وجورا .

وحيث ان غايتنا من تحبير هذه الكراسة الصغيرة هي بيان قبسة من قبسات حياة الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام تيمناً بذكره وليكون ختاماً

لشرح امالية فقد اختصرنا ذلك لان الكتاب والمؤلفين لم يتركوا ناحية من نواحي حياة الامام عليه السلام الا بينوها ولم يدعوا جهة من جهاتها الا فصلوها تفصيلا لم يبق مقالا لغيرهم على انهم مع ذلك لم يبلغوا مداه ولم يصلوا الى حقيقة ما تمثلت فيه من شتى العلوم والمعارف وفواضل الاخلاق الاسلامية الحميدة والصفات الانسانية الكاملة .

لذلك فانا هنا نكتفي بالنزر القليل من بيان حياته الشريفة لكيلا يخلو الكتاب من ذكره العاطر .

راجين من الله ان نوفق لاداء بعض الواجب وان يقبل منا ماقدمناه من بضاعتنا المزجاة انه الموفق المجيب .

ولادته ونشأته ووفاته

كان يوم الجمعة السابع عشر من شهر ربيع الاول من عام ٨٣ هجرية يوماً زاهياً مشرقاً بنور الهدى زاهراً بالخير والهناء للانسانية جمعاء .

فقد ولد في فجره اكرم مولود ميمون وشرف وجه البسيطة بنور طلعة اغر هابط انحدر من مرتفع النبوة ومرتقى الامامة اعني به سيدنا ومولانا الامـــام جعفر بن محمد الصادق بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب عليهم الصلاة والسلام وامه ام فروة بنت القاسم بن محمد بن ابي بكر رضي الله عنهم .

ومن هنا قال الصادق عليه السلام : ان ابا بكر ولدني مرتين ذلك لان امه ام فروة وجدته اسماء بنت عبد الرحمن بن ابي بكر . . .

وقد كانت ولادته بالمدينة البلد الطيب بلد الهجرة ومهبط الوحي الذي منه ارتفعت اعلام الاسلام ومنه انتشر نور الهدى على العالم اجمع وكان ذلك في اخريات ايام عبد الملك بن مروان قضى من عمره فيها (٣) سنين وفي ايـام الوليد بن عبد الملك (٩) سنين و (٨) اشهر وفي خلافة سليمان (٣) سنين و (٣) اشهر و (٥) ايام ثم (٢) سنتين و (٥) اشهر في خلافة عمر بن عبد العزيز وفي خلافة يزيد بن عبد الملك (٤) سنين وشهراً واحداً ثم عشر بن سنه من خلافة هشام بن عبد الملك وسنة واحدة في خلافة الوليد بن يزيد وستة اشهر في خلافة يزيد بن الوليد .

وبعد هؤلاء لم يبق للامويين خليفة معين لكثرة الاضطرابات حتى زال ملكهم في سنة ١٣٢ هـ

اما في العهد العباسي فقد عاش السفاح وقضى عشر سنين من خلافة المنصور هذا وقد نشأ في بيت النبوة وترعرع في ربوع الوحي بين جده وابيه فقد اقام مع جده (١٢) سنة واخذ عنه وتربى في مدرسته .

ومما من شك في ان الامام السجاد كان افضل الهاشميين وسيد اهل البيت في عصره كما كان اعلم الامة في زمانه واورعهم واصدقهم حديثا وبعد وفاته تفرد في تربيته ابوه الباقر عليه السلام وهو هو الذي بقر العلم بقراً كما روى جابر بن عبد الله الانصاري عن النبي (ص) .

فنشأ الامام عليه السلام تلك النشأة الصالحة بعد مدة (١٩) قضاها مع والده ثم كان هو الخليفة من بعده متحملا عبأ الامامة ونقل التبليغ والارشاد .

وقد كان عليه السلام في خلال حياته مع ابيه يستقي صفو العلم الالهي واسرار الشريعة الاسلامية ويقتبس اساليب الحياة التي ينبغي ان يحياها عظماء الرجال في العالم .

فان الزعامة الدينية لها واجبات جليلة وتضحيات عظيمة في سبيل ارشاد العالم وردع عبث العابثين وافساد المفسدين في احكام الدين فهو يحضر مجالس العلم والمذاكرة مع والده .

وقد روى الحديث عنه وعن آبائه وجده النبي كما صحب اباه الى الشام فرأى اتجاهات السياسة الاموية ومر بكثير من البلدان فرأى استغلال العمال بالحكم استغلالا كنظام الاقطاع وسمع كثيراً من شكوى العامة في الظلم والجور فتركت هذه الامور في نفسه الاثر القوي الذي كان يحرك في نفسه طلب

الاصلاح ونجاة الناس من هذه الاحكام الجائرة والاستبداد في الحكم .

مضافاً الى انه استفاد من كل ذلك عبراً وحكماً علاوة على كماله الذاتي الذي اختص به هذا البيت النبوي الجليل الذي حباه الله تعالى نفوساً طاهرة نقية واصطفاه بعلمه ولعلمه وجعلهم خزان علمه وحملة لوحيه دون سماع من معلم سوى جدهم رسول الله (ص) الذي لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى عن الله تعالى على لسان جبرائيل عليه السلام .

لذلك فقد كان بعد أبيه يرشد الحائر ويعلم الاحكام الشرعية ويجلو الشبه وينشر الدعوة الاسلامية وينير الطريق الحق للتائهين ما وسعه الوقت وساعدته الفرص حتى توفي سنة ١٤٨ هـ في المدينة ودفن في البقيع مع جده وابيه وعمه الحسن عليه السلام وجدته الزهراء عليهم السلام وكان ذلك في يوم ٢٥ شوال على اصح الاقوال .

ملامحه وشمائله

ان بيان ملامح الامام وهيأته الجسمية ليس مما يلزم الباحث ذكرها لانه هو الامام والامام عندنا يجب ان يكون جسمه مصانا من النقائص والتشويه الخلقي ومع ذلك فقد اجمع المؤرخون انه كان عليه السلام ربعة القامة ازهر الوجه حالك الشعر جعدا اشم الانف انزع رقيق البشرة على خده خال اسود وبالجملة فقد كان له من جمال الخلقة وكمال التكوين وتناسب التركيب حظ كبير ومن الاوصاف ما كانت كلها جمالا وكمالا .

وليس الغرض هنا بيان ما خلق عليه من جمال الصورة واعتدال الهيكل وتناسب الاعضاء وانما المقصود ذكر ما منح عليه السلام من بصيرة نافذة وعلم جم وخبرة كاملة بموارد الحياة ومصادرها .

وما جبل عليه من اخلاق اسلامية عالية واخلاص حقيقي في بث الدعوة واعلاء كلمة التوحيد وافهام للناس معالم دينهم وتعليمهم نظم الاسلام واحكام الدين بكل وسيلة وبالتي هي احسن واقوم .

هذا مع ما اختص به من المعرفة الواقعية بالتشريع حتى كان الفقه الجعفري كله ماخوذ منه ومروي عنه .

وهو هو فقه النبي (ص) والائمه من بعده ومن قبلهم ينطق عن هوى ولم يقل الا ما قاله النبي (ص) .

فحلال محمد حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى يوم القيامة .

مضافاً الى ما رزق عليه السلام من النظرات الحكيمة بعيدة المرمى حتى الى ما بعد الطبيعة .

والخلاصة انه عليه السلام كان مجموعه فضائل لا يقاس بغيره ولا يقاس غيره به .

وكان اساس كل تلك الفضائل والسجايا الحميدة هو مخافة الله ومخافة الله رأس الحكمة ومن اوتي الحكمة فقد اوتي خيراً كثيرا .

حياته في المجتمع

ان الغاية القصوى من الاديان السماوية التي من اجلها ارسل الله تعالى الانبياء والرسل الى البشر هي ان يعيش الانسان في ظل السعادة الدنيوية باتباع التعاليم الدينية والآرشادات الاصلاحية وان ينال السعادة الاخروية بالاعتراف والاقرار بالوحدانية والطاعة لاوامر الخالق الواحد والابتعاد عن معصيته ومخالفته .

وقد كانت الرسل والانبياء تؤدي هذه الغاية كل حسب مدارك اهل عصره وبالسبل التي خطت له من السماء لارشاد تلك الامم وتعليمهم ما يطلب منهم وارائتهم المعاجز وخوارق العادة لاستناد دعوتهم وتصديق رسالتهم فبعضهم باحياء الموتى وآخر بابطال السحر الى غير ذلك .

حتى جاء خاتم النبيين نبينا محمد بن عبد الله بالمعاجز الباهرة واعظمها القرآن الكريم الذي عجزت عن مباراته بلغاء العرب وفصحاؤهم على جهدهم وطلبهم الحثيث .

ولما اجاب النبي (ص) داعي الله وقام اوصياؤه من بعده بحفظ الشريعة والارشاد والتعليم كان لكل فرد منهم منهج خاص وسيرة مرسومة عليه ان يعمل بموجبها وليس امره منوطاً بحياة امام تقدمه ولا سلوكه محتم ان يكون على وفق سلوك امام سابق بل ان لكل واحد منهم خطة انتهجها تعد غريبة عن الخطة التي سبقت لسلفه

وذلك لان الهيئة الاجتماعية ذات كيوف تتحول وتتبدل تبعاً لما يعرض للامم من مؤثرات مختلفة واحوال متقلبة فترى امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام كان يحضر مجالس الخلفاء الثلاثة قبله ليرجع اليه في القضاء لا سيما في الحوادث الصعبة التي لا يمكن ان يقضى بها سواه فيحكم بها ويعمل بحكمه حتى قال الخليفة عمر رضى الله عنه لا ابقانى الله لمعضلة ليس لها ابو الحسن .

وقال في موضع آخر : لو لا علي لهلك عمر الى غيرها .

فكان عليه السلام يؤدي واجبه الديني بهذه الطريقة الى ان ارجعت اليه الخلافة .

وكان الامام الحسن عليه السلام خطته السلم والموادعة واحتمال المكروه وتجرع الغصة لذلك اعتزل المطالبة بالخلافة ، في حين ان الحسين عليه السلام وهو شقيقه لم يكن يداري في قول ولا يغض الطرف عن مكروه وجهه اعداؤه اليه وحينما وجد ان الوقت حان للمطالبة بالامر جاهر بالدعوة واعتمد السيف ناصراً وظهيرا على قلة الانصار وضعف الداعي الديني في النفوس وهكذا كانت خطة ولده زين العابدين اذ كان ارشاده ودعوته بالادعيـــة والاوراد التي هي في الحقيقة خطط اصلاحية وتعاليم اسلامية اذ لم يجد مجالا في بث الدعوة سوى هذه الطريق لكثرة مراقبة السلطة وشدة مناوئتها لال البيت .

اما الامام الباقر عليه السلام فقد كانت خطته كـــثرة رواية الاخبار والاحاديث عن النبي (ص) وعن آبائه مع بث العلوم والمعارف بكل وسيلة .

اما الامام الصادق عليه السلام فقد نشأ في مجتمع تتنازع فيه الاهـــواء وتضطرب فيه الافكار كما طغت فيه موجه الزندقة والالحاد وتلاطمت فيـه امواج الظلم والارهـاب ، فلا حرية للنفوس ولا قيمة للدين ولا نظام يشمل

الرعية بل كله فوضى يحكم الامراء بما يشاؤن والرعية بين ايديهم العوبـــة لاغراضهم وميولهم .

وقد شاهد البلاء المنصب على انصار آل محمد وشيعتهم من حكام الامويين وقدسمع سب جده علي بن ابي طالب على المنابر وفي كل صلاة وحتى في قصصهم ووعظهم وبراعة استهلال خطبهم كما كابد ما كان يلاقونه آل محمد من المصاعب والمشاق التي لا مناص لهم فيها الا الصبر وانتظار الفرج .

هذه الادوار كلها شاهدها وهو يعيش مع اهل بيته بتلك الدائرة الضيقة محاطاً بالرقابة ناشئاً بين تلك المصائب والمصاعب والمحن والبلايا ولكنه مع ذلك لما كان هو المسؤل في عصره عن اداء واجب الارشاد والدعوة الى الدين بعد آبائه كان القيام بانجازها شغله الشاغل يدعوا اليها سراً وعلانية وقولا وعملا ويروي الحديث عن جده النبي (ص) وآبائه عليهم السلام ويفسر الكتاب ويجادل أهل البدع الذين كثروا في عصره ويحاجج الملحدين الذين كانوا يقصدونه للمحاجة والشبه ويداري اصحابه المختلفي الاذواق والاراء والمدارك كل هذا مع الحذر من السلطة والخوف على نفسه وعلى اصحابه واهل بيته العلويين من جور الحكام ومراقبة السلطان في حين ان الوضع السياسي آنذاك كان ملتهب النيران يحرق الاخضر واليابس وتاكل ناره كما يقف ويموق دون اغراضها فانظر اليه عليه السلام وهو في وسط لجة هذا المحيط الهائج والنار المتاججة اللاهبة كيف كان يستطيع ان يؤدي واجبه الديني لو لاما كانت فيه من قابلية الزعامة الدينية والحلم والصبر وغيرها من الاخلاق الفاضلة التي إهلته لهذا المنصب الرفيع الذي اختاره الله تعالى له ليكون الداعي الى توحيده والقائد الى صراط الحق في وسط تلك المعامع الصاخبة .

لذلك فقد وقف عليه السلام في ذلك المجتمع الذي جمع الرذائل باسم الفضائل وحارب الدين باسم الدين امام ذلك السيل الجارف سداً منيعاً فكانت سياسته الرشيدة نشر العلوم والمعارف وبث الاحكام والحكم وافشاء الفضائل وكبح الضلالات.

كما كانت تعاليمه خدمة للشريعة واقواله ارشاداً للناس ومناظراته قلعاً للبدع كل هذا والسلطان كانتا له بالمرصاد .

ولا عجب في ما كان يلاقيه الامام عليه السلام من تلك المكاره فان المحن تأتي على قدر ما في المرء من فضيلة وكرامة وعلى قدر مقامه بين الناس ومحله من القلوب والنفوس .

الصادق في انظار العلماء

ان الانسانية الكاملة التي تقدس في الرجال العظام والذين هم نخبة العالم وزبدة الخلق لهي التي يفوق المتحلون بها على غيرهم بالمزايا الجليلة والملكات السامية والمواهب الرفيعة .

فتشرق في نفوسهم الصافية اشراقاً يجعل الناس تنحني اكباراً وتخضع اجلالا واعظاماً لتلك الانسانية المتجسدة بهم وتاخذ اصحابها في القلوب محلا رفيعاً وفي الانظار مكانة سامية .

وهكذا فقد كانت للامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في نفوس اهل العلم والمعرفة وحتى في نفوس اعدائه ومناوئيه مكانة جليلة مرموقة تطاول اليها الاعناق ولا تبلغها الامال ، وهذه اقوالهم تنبئك عن آرائهم فيه وهذه تعاريفهم تخبرك عن معرفتهم به .

وهاك استمع الى نزر من اقوال العلماء من الامة ورؤساء المذاهب وحفاظ الحديث وكبار المؤرخين من القدماء وبعض المعاصرين حوله عليه السلام .

(١) قال زيد بن علي عليه السلام : في كل زمان رجل منا اهل البيت يحتج الله تعالى به على خلقه ، وحجة زماننا ابن اخي جعفر لا يضل من تبعه ولا يهتدي من خالفه .

(٢) وقال المنصور الدوانيقي اشد اعدائه : ان جعفر بن محمد كان ممن

قال الله تعالى فيه (ثم اورثنا الكتاب الذي اصطفينا من عبادنا) وكان ممن اصطفاه الله وكان من السابقين في الخيرات ، وانه ليس من اهل بيت الاوفيهم محدث وان جعفر بن محمد محدثنا اليوم .

(٣) وقال مالك بن انس رئيس المذهب المالكي : جعفر بن محمد اختلفت اليه زماناً فما كنت اراه الا على احدى ثلاث خصال ، اما مصل واما صائم واما يقرأ القرآن وما رأت عين ولا سمعت اذن ولا خطر على بال بشر افضل من جعفر بن محمد الصادق علما وعبادة وورعاً .

(٤) ابو حنيفة امام المذهب الحنفي : لولا السنتان لهلك النعمان .

(٥) الجاحظ : جعفر بن محمد الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه ويقال ان ابا حنيفة من تلامذته وكذلك سفيان الثوري وحسبك بهما في هذا الباب .

(٦) ابن حجر العسقلاني : جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب فقيه صدوق .

(٧) ابن حجر الهيثمي : نقل عنه الناس ما سارت به الركبان وانتشر صيته في جميع البلدان وروى عنه الأئمة الاكابر كيحيى بن سعيد وابن جريج ومالك والسفيانين وابي حنيفة وشعبه وايوب السجستاني .

(٨) ابن ابي الموجاء وهو الملحد المشهور : ما هذا بشر وان كان في الدنيا روحاني يتجسد اذا شاء ويتروح اذا شاء فهو هذا ـ واشار الى الصادق عليه السلام ـ

(٩) السويدي في سبائك الذهب : كان بين اخوته خليفة ابيه ووصيه نقل عنه في العلوم ما لم ينقل عن غيره وكان اماماً في الحديث وله مناقب كثيرة

(١٠) عبد العزيز سيد الاهل : جعفر بن محمد كان اماماً ومفخرة من

مفاخر المسلمين لم تذهب قط وانما بقى منها فى كل غد قادم حتى القيامة صوت صارخ يعلم الزهاد زهداً ويكسب العلماء علما ويهدي المضطرب ويشجع المقتحم ويهدم الظلم ويبنى للعدالة وهو ينادي بالمسلمين جميعا ان هلموا واجتمعوا وإن قوماً لم يختلفوا فى ربهم وفى نبيهم لمجموعون معا اختلفوا في يوم قريب .

(١١) الشهرستاني فى الملل والنحل : وهو ذو علم غزير في الدين والأدب وحكمة كاملة فى الدنيا وزهد بالغ فى الدين وورع تام في الشهوات .

وقد اقام في المدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين اليه ويفيض على الموالين له اسرار العلوم .

ثم دخل العراق واقام بها مدة ما تعرض فيها للامامةقط ولا نازع احداً في الخلافة .

ومن غرق في بحر من المعرفة لم يطمع فى شط ، ومن تعلى الى ذروة الحقيقة لم يخف من حط ، ومن انس بالله توحش من الناس ، ومن استأنس بغير الله تهيه الوسواس .

(١٢) محمد الصبان فى اسعاف الراغبين : اما جعفر الصادق فكان اماماً نبيلا وكان مجاب الدعوة اذا سأل الله شيئاً لا يتم قوله الا وهو بين يديه .

(١٣) الشعراني فى لواقح الانوار : وكان سلام الله عليه اذا احتاج الي شيء قال يارباه انا احتاج الي كذا فا استتم دعاؤه الا وذلك الشيء بجنبه موضوع .

(١٤) سبط بن الجوزي فى الخواص : قد اشتغل بالعبادة عن طلب الرياسة .

(١٥) الحافظ ابو نعيم في الحلية : ومنهم الامام الناطق والزمام السابق

ابو عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام اقبل على العبادة والخضوع واثر العزلة والخشوع ولها عن الرياسة والجموع .

(١٦) ابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة : مناقب ابي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام فاضلة ، وصفاته في الشرف كاملة ، وشرفه على جهات الايام سائلة ، واندية المجد والعز بمفاخره ومآثره آهله .

(١٧) الدكتور احمد امين : واكبر شخصيات ذلك العصر في التشريع الشيعي بل ربما كان اكبر الشخصيات في ذلك في العصور المختلفة الامام جعفر بن محمد الصادق .

وعلى الجملة فقد كان الامام جعفر بن محمد من اعظم الشخصيات في عصره وبعد عصره وقد مات في العام العاشر من حكم المنصور .

(١٨) عمرو بن ابي المقدام : كنت اذا نظرت الى جعفر بن محمد علمت انه من سلالة النبيين .

(١٩) الشبلنجي ومناقبه كثيرة تكاد تفوت حد الحاسب ، ويحار في انواعها فهم اليقظ الكاتب .

(٢٠) محمد بن طلحة في مطالب السؤل : هو من عظماء اهل البيت وساداتهم ذو علم جم وعبادة موفرة واوراد متواصلة وزهادة بينة وتلاوة كثيره .

يتبع معاني القرآن الكريم ويستخرج من بحره جواهره ويستنتج عجائبه ، ويقسم اوقاته على انواع الطاعات بحيث يحاسب عليها نفسه .

رؤيته تذكر الاخرة ، واستماع حديثه يزهد في الدنيا ، والاقتداء بهديه يورث الجنة .

نور قسماته شاهد انه من سلالة النبوة وطهارة افعاله تصدع بانه من ورثة الرسالة الخ .

الى كثير غيرها مما لا يسع ذكره هذه الكراسة المختصرة فان ما ذكرته الكتب ونطق به العلماء وذوو الفضل وحتى الاعداء والمناوئين له لا يحويه كتاب .

وانما اردنا هنا ان نعطيك نموذجاً مما له فى القلوب من المكانة ولدى ذوى العلوم والعقول من الاكبار والاعظام صلى الله عليه وسلم .

مدرسته

قضى الامام عليه السلام مدة (٥٠) عاماً او (٥٣) عاماً على قول من يروى ولادته عام (٨٠) هجرية من عمره في العهد الاموى الى سنة ١٣٣ هـ وهي سنة زوال ملكهم كان منها (٣١) سنة في ايام عظمتهم وطغيانهم .

وفيها كان يدعو الى الدين ويبث الاحكام بكل حذر وخوف حتى ضاقت صدور الناس بظلمهم واخذت الجمعيات السرية والمؤتمرات الانقلابية تزداد لحدوث إنقلاب عام لازالة مملكة الامويين .

وفي عام ١١٤ دب الضعف في جسم الدولة وحصل الخلاف بين الامويين انفسهم فاضطربت الدولة سائرة الى الانهيار وهنا كانت الفترة السعيدة التي اغتنمها الامام عليه السلام داعياً لفتح ابواب مدرسته الدينية الاصلاحية العلمية ليقوم بما يجب عليه من توجيه الناس الى الدين الحنيف وبث احكامه وتعاليمه التي اوشكت ان تذهب هباء في العهد الاموى الجائر .

ثم اخذت تواصل نشاطها العلمي ودعوتها الاصلاحية العظيمة سائرة في طريق كفاحها الديني المتواصل بين شيخوخة الدولة الأموية وطفولة الدولة العباسية فكانت تلك الفترة فترة ازدهار العلم لتعليم الناس حتى اصبح بيته بالمدينة جامعة اسلامية تزدان على الدوام بكبار العلماء في الحديث والتفسير والحكمة والكلام والادب وغيرها ممن يؤمها من طلاب العلم ورواة الحديث من الاقطار

الثانية اذ لا رقابة ولا حذر فكانت الكوفة والبصرة وواسط والحجاز ترسل افلاذ اكبادها ورجالها من كل قبيلة كبنى اسد ومخارق وطى وغطفان وغفار والازد وخزاعه وخثعم ومخزوم وبني ضبة ومن قريش لا سيما بني الحارث بن عبد المطلب وبنى الحسن وغيرهم .

ولا غرابة فى ان يؤم المدينة المنورة وقـــود اطراف البلاد الاسلامية من مختلف الاقطار لطلب الفقه والحديث وغيرهما فانهـــا دار هجرة الرسول وموطن الشرع ومبعث النور وعاصمة الحكم الاسلامي لا سيما وان فيها اهل بيت النبى (ص) وعترته الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا فهم حملة العلم واعلام الانـام وحكام الاسلام قوم بنور الخلافة يشرقون وبلسان النبوة ينطقون .

لذلك فقد وجد الناس فيها الثروة العلمية الوافرة والحياة الفكرية السليمة الوادعة البعيدة عن المنازعات السياسية والعصبيات الدينية .

فكان الامام الصادق عليه السلام في مدرسته هذه يوجه الامة باخلاص الى اسمى درجة التفكير ويفهمهم نظم الاسلام على الوجه الصحيح ليقلع بذور الاخلاق الشاذه وليبذر في النفوس الآخلاق الاسلامية الفاضلة ويثبت في الانسان انسانيته بتعديل النزعات المنحرفة ويفيض عليها تعاليمه القيمة التي بها تستقيم النفوس وتصلح الطباع وتعالج مشاكل المجتمع عملا باداء مسؤليته الكبرى التي القيت على عاتقه اذ هو الامام المرشد والخليفة بعد جده (ص) وآبائه الطاهرين .

وقد نقل عنه الحديث جماعة من أئمة المذاهب واعلامهم مثل يحيى بن سعيد الانصارى وابن جريج ومالك بن انس والثوريان وابن عيينه وابى حنيفة وشعبه والسجستاني وغيرهم وقد عدو الاخذهم منه منقبة شرفوا بها وفضيلة اكتسبوها

وقد نالت مدرسته (ع)شهرة عظيمة واعتبر زعيمها عليه السلام اول من اسس المدارس الفلسفية في الاسلام .

ولم يكن يحضر حلقته العلمية اولئك الذين اصبحوا مؤسسى المذاهب الفقهية فحسب بل كان يحضرها طلاب الفلسفة والمتفلسفون من الانحاء القاصية وحتى الاعداء والملحدين .

وكان يحضر مجلسه فى الاغلب الالفان وقد يبلغ الاربعة آلاف رجل من العلماء المشهورين .

ولكن فى عام تسنم المنصور عرش السلطنة ضيق دائرتها اذ لا تروق مثل هذه الشهرة لال علي عليه السلام لدى بنى العباس فهم يحسبون ذلك اعظم خطر يهدد الدولة فشهرة المدرسة هى شهرة الصادق عليه السلام وشهرة الامام مما تقض مضاجعهم وتبعثهم على القلق والارتباك .

لذلك فقد كان المنصور يتخذ التدابير الصارمة ضده ويضع الخطط الكثيرة التي توصد باب تلك المدرسة التي يخشى منها اتساع نفوذ العلويين مطلقا في المجتمع وهكذا فقد استطاعوا بعد مدة ان يغلقوا بابها اما اسباب ذلك فيحتاج الى شرح طويل .

وعلى كل حال فقد اجمع الرواة والمحدثون واتفقت التواريخ على ان المتخرجين من مدرسته على اختلاف ارائهم ومذاهبهم وبلادهم قد بلغوا اربعة آلاف عالم اشهرهم .

(١) مالك بن انس رئيس المذهب المالكى (٢) ابو حنيفة امام الحنفيين (٣) سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى (٤) سفيان بن عيينه ابن ابى عمران (٥) شعبة بن الحجاج (٦) فضيل بن عياض اليربوعى

(٧) حاتم بن اسماعيل (٨) حفص بن غياث (٩) زهير بن محمد التميمي (١٠) يحيى بن سعيد البصري (١١) اسماعيل بن جعفر الانصاري (١٢) ابراهيم بن محمد الاسلمي المدني (١٣) الضحاك بن مخلد البصري (١٤) مصعب ابن سلام التميمي الكوفي (١٥) بشر بن ميمون الخراساني (١٦) ايوب السجستاني (١٧) عبد الملك بن جريج القرشي (١٨) ابان بن تغلب الكوفي (١٩) ابان بن عثمان بن احمر البجلي (٢٠) بكير بن اعين الشيباني اخو زراره (٢١) جميل بن دراج النخعي (٢٢) حماد بن عثمان بن زياد الرواسي الكوفي (٢٣) الحارث بن مغيرة النصري (٢٤) هشام بن الحكم البغدادي الكندي (٢٥) المعلى بن خنيس .

الى غيرهم مما لا يمكن حصرهم وذكرهم هنا بل وحتى مشاهيرهم .

مناظراته عليه السلام

لقد هبت في عصر الامام عليه السلام عواصف سياسية وتضارب في الحكم وصحبتها تيارات فكرية وهزات الحادية عنيفة افلقت افكار حماة الشريعة والمصلحين الذائدين عن حوضها اذ انتشرت الزنادقة ولا سيما في العراق واثاروا الشبه والانتقادات المذهبية والدينية ولا غرابة فان العصر كان عصر انقلاب سياسي في دولة جديدة تروم قلب الوضع السابق لارساخ اقدامها واثبات كراسيها دون نظر الى دين او مذهب .

ولعلها كانت تعتقد ان الدين والمذهب ينافيان اغراضها الدولية السياسية لذلك فقد ظهرت الفرق المنحرفة والمبتدعون الذين ارادوا الظهور والسيطرة والرياسة في هذه الفترة المناسبة فكانت النزوية والطبيعية المادية ومن لا يدين الا بالحس الى غيرهم من الطبقات الملحدة الثائهة .

فنهض الامام عليه السلام لمقارعة اهل الباطل وباحث وجادل الفلاسفة واهل البدع والدهريين واهل الكلام الجداليين الذين كانوا يسعون في افساد المعتقدات بسفسطاتهم الفارغة وافلجهم بالدلائل الواضحة والحجج القوية حتى ارجع الكثير منهم الى محجة الحق والصراط المستقيم بافهامهم اخطاءهم وانحرافهم بالتي هي احسن واقوم كلا حسب مداركه وعلمه ، وقد احتفظ التاريخ بقسم من مناظراته معهم ، واليك بعضها :

منها : ما ذكرها الصدوق في توحيده : قال هشام بن الحكم كان زنديق بمصر يبلغه عن ابي عبد الله عليه السلام علمه فخرج الى المدينة ليناظره فلم يصادفه بها وقيل له هو بمكة فخرج الزنديق الى مكة ونحن مع ابي عبد الله فقار بناونحن في الطواف ، فضرب كتفه كتف الصادق عليه السلام .

فقال عليه السلام له ما اسمك ؟ قال اسمي عبد الملك ، قال : فما كنيتك قال ابو عبد الله ، فقال عليه السلام : من ذا الملك الذي انت عبد له ، امن ملوك السماء ام من ملوك الارض واخبرني من ابنك اعبد الله السماء ام اعبـــد الله الارض فسكت . فقال له ابو عبد الله عليه السلام قل ما شئت تخصم .

قال هشام فقلت للزنديق ، اما ترده عليه ، فقبح قولي . فقال له الامام عليه السلام اذا فرغت من الطواف فأتنا .

فلما فرغ الامام من الطواف اتاه الزنديق فقعد بين يديه ونحن مجتمعون عنده فقال عليه السلام للزنديق : اتعلم ان للارض فوقا وتحتا قال نعم قال عليه السلام فدخلت تحتها قال لا قال عليه السلام فما يدريك بما تحتها قال لا ادري الا اني اظن ان ليس تحتها شيء فقال له : فالظن عجز من لم يستيقن ، ثم قال ابو عبد الله عليه السلام فصعدت الى السماء قال لا قال فتدري ما فيها ثم اتيت المشرق والمغرب فنظرت ما خلفها قال لا .

قال عليه السلام فعجزت لم تبلغ المشرق ولم تبلـــغ المغرب ولم تنزل تحت الارض ولم تصعد السماء ولم تخبر ما هنالك فتعرف ما خلفهن وانت جاحد ما فيهن ، وهل يجحد العاقل ما لا يعرف .

فقال الزنديق ما كلمني بهذا احد غيرك . فقـال ابو عبد الله عليه السلام فانت في شك من ذلك ، فلعل هو ولعل ليس هو ، فقال الزنديق ولعل ذاك

فقال عليه السلام ايها الرجل ليس لمن لا يعلم حجة على من يعلم فلا حجة للجاهل على العالم .

ياأخا اهل مصر تفهم عني فانك لا تشك في الله إبداً ، اما ترى الشمس والقمر والليل والنهار يلجان ولا يشتبهان يذهبان ويرجعان قد أضطرا ، ليس لهما مكان الا مكانهما فان كانا يقدران على ان يذهبا فلا يرجعان فلم يرجعان ، وان لم يكونا مضطرين فلم لا يصير الليل نهاراً والنهار ليلا . اضطرا والله ياأخا اهل مصر الى دوامهما والذي اضطرهما أحكم واكبر منهما .

قال الزنديق صدقت . ثم قال عليه السلام ياأخا اهل مصر الذي تذهبون اليه وتظنونه الدهر فان كان الدهر يذهب بهم لم لا يردهم وان كان يردهم لم لا يذهب بهم ، بل القوم مضطرون .

ياأخا اهل مصر ، السماء مرفوعة والارض موضوعة لم لا تسقط السماء على الارض ولم لا تنحدر الارض فوق طاقاتها فلا يتماسكان ولا يتماسك من عليها فقال الزنديق امسكهما والله ربهما وسيدهما .

فآمن الزنديق على يدي ابي عبد الله عليه السلام ، فقال الذي آمن على يدي ابي عبد الله عليه السلام اجعلني من تلامذتك فقال الامام عليه السلام لهشام بن الحكم خذه فعلمه ، فعلمه هشام .

ومنها : كما ذكر الصدوق قال دخل ابن ابي العوجاء على ابي عبد الله عليه السلام فقال : اليس تزعم ان الله خالق . قال ابو عبد الله : بلى فقال انا اخلق فقال له كيف تخلق فقال احدث في الموضع ثم البث عنه فيصير دوداً فاكون أنا الذي خلقته ، فقال عليه السلام اليس خالق الشيء يعرف كم خلقه ، قال له بلى قال عليه السلام فتعرف الذكر منها من الانثى وتعرف عمرها فسكت .

وفي اليوم الثاني عاد الى الصادق ، فقال له الصادق عليه السلام كانك جئت تعيد بعض ما كنا فيه ، فقال اردت ذلك يابن رسول الله . فقال ابو عبد الله عليه السلام ما اعجب هذا تنكر الله وتشهد اني ابن رسول الله (ص) فقال العادة تحملني على ذلك .

فقال له عليه السلام : فما يمنعك من الكلام ، قال : اجلالا لك ومهابة ، ما ينطق لساني بين يديك فاني شاهدت العلماء وناظرت المتكلمين فما تداخلني هيبة قط مثلما تداخلني من هيبتك .

فقال عليه السلام يكون ذلك ، ولكن افتح عليك سؤالا واقبل عليه، فقال له امصنوع انت ام غير مصنوع ، فقال : انا غير مصنوع .

فقال له عليه السلام فصف لي لو كنت مصنوعاً كيف كنت تكون ،فاطرق عبد الكريم مليا لا يحير جواباً ، وولج بخشبة كانت بين يديه وهو يقول :طويل عريض عميق قصير متحرك ساكن كل ذلك من صفة خلقه .

فقال له الصادق فان كنت لم تعلم صفة الصنعة من غيرها فاجعل نفسك مصنوعاً فما تجد في نفسك من مايحدث من هذه الامور ، فقال له عبد الكريم سألتني عن مسألة لم يسألني احد عنها قبلك ولا يسالني احد بعدك مثلها .

فقال له ابو عبد الله عليه السلام : هبك علمت انك لم تسأل فيما مضى فما علمك انك لم تسأل فيما بعد ، على انك ياعبد الكريم نقضت قولك ، لانك تزعم ان الاشياء من الاول سواء فكيف قدمت واخرت .

ثم قال عليه السلام : ياعبد الكريم ازيدك وضوحاً ارأيت لو كان معك كيس فيه جواهر، فقال لك قائل : هل في الكيس دينار فنفيت كون الدينار في الكيس فقال لك القائل :صف لي الدينار وكنت غير عالم بصفته ،هل لك ان تنفي

كون الدينار في الكيس وانت لا تعلم . قال لا .

فقال له عليه السلام : فالعالم إكبر واطول واعرض من الكيس ، فلعل في العالم صنعة من حيث لا تعلم ، وانت لا تعلم صفة الصنعة من غير الصنعة .

فانقطع عبد الكريم واجاب الى الاسلام بعض اصحابه وبقي معه بعض

ومنها : ان ابن ابي العوجاء التقى به عليه السلام في الحرم ، فقال بعض شيعته ان ابن ابي العوجاء قد اسلم فقال الصادق عليه السلام هو اعمى من ذلك لا يسلم ، فلما بصر بالصادق ، قال سيدي ومولاي .

فقال له عليه السلام ما جاء بك الى هذا الموضع ، قال عادة الجسد وسنة البلد وانبصر ما الناس فيه من الجنون والحلق ورمي الحجارة .

فقال له الامام عليه السلام انت بعد على عتوك وضلالك فذهب يتكلم ، فقال الامام عليه السلام لا جدال في الحج ونفض رداءه من يده وقال :

ان يكن الامر كما تقول وليس هو كما تقول نجونا ونجوت وان يكن الامر كما نقول وهو كما نقول نجونا وهلكت .

ومنها : إن ابن ابي العوجاء ناظر الامام عليه السلام يوماً في تبديل الجلود في النار فقال : ما تقول في هذه الاية (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها) هب ان هذه الجلود عصت فعذبت فما بال الغير يعذب ؟

فقال ابو عبد الله عليه السلام : ويحك هي هي وهي غيرها . فقال اعقلني هذا القول .

فقال له : ارأيت لو أن رجلا عمد الى لبنة فكسرها ثم صب عليها الماء فجبلها ثم ردها الى هيئتها الاولى الم تكن هي هي وهي غيرها . فقال : بلى امتع الله بك .

ومنها : ان ابا شاكر الديصاني احد ملاحدة العرب قال لهشام بن الحكم يوماً : ان في القرآن آية هي من قولنا . قال هشام : وما هي ؟ قال :

(وهو الذي في السماء اله وفي الارض اله) قال هشام فلم ادر بم أجيبه ، فحججت فاخبرت ابا عبد الله عليه السلام بها فقال ; هذا كلام زنديق خبيث اذا رجعت اليه فقل له ما اسمك بالكوفة فانه يقول انك فلان ، فقل له ما اسمك في البصرة ، فانه يقول فلان ،

فقل له فكذلك ربنا في السماء اله وفي الارض اله وفي البحار اله وفي القفار اله وفي كل مكان اله ، قال فقدمت فلقيت ابا شاكر فاخبرته ، فقال هذه نقلت من الحجاز .

ومنها : ان عبد الله الديصاني اتى باب الامام عليه السلام فاستأذن له ، فلما قعد قال : ياجعفر بن محمد دلني على معبودي :

فقال عليه السلام : ما اسمك ، فخرج عنه ولم يخبره باسمه فقال له اصحابه كيف لم تخبره باسمك ، قال : لو كنت قلت له عبد الله كان يقول من الذي انت له عبد . فقالوا عد اليه وقل له يدلك على معبودك ولا يسألك عن اسمك . فرجع اليه وقال : يا جعفر بن محمد دلني على معبودي ولا تسألني عن اسمي .

فقال له الامام عليه السلام اجلس ، واذا غلام له صغير في كفه بيضة يلعب بها .

فقال ابو عبد الله يا ديصاني : هذا حصن مكنون له جلد غليظ وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق وتحت الجلد الرقيق ذهبة مائعة وفضة ذائبة فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضة الذائبة ولا الفضة الذائبة تختلط بالذهبة المائعة فهي على حالها لم يخرج منها خارج مصلح فيخبر عن صلاحها ولا دخل فيها مفسد فيخبر عن

فسادها لا يدري الذكر خلقت ام للانثى ، تنفلق عن مثل الوان الطواويس ، اترى لهذا مدبراً .

فاطرق ملياً ثم قال اشهد إن لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله وانك امام وحجة من الله على خلقه واذا تائب مما كنت فيه .

ومنها : ان جاء ابن ابي العوجاء يوماً الى الامام عليه السلام وقال له : ما الدليل على حدث الاشياء .

فقال عليه السلام : اني ما وجدت شيئاً صغيراً ولا كبيراً الا اذا ضم الى مثله صار اكبر وفي ذلك زوال وانتقال عن الحالة الاولى ، ولو كان قديماً لما زال ولا حال لان الذي يزول ويحول يجوز ان يوجد ويبطل فيكون وجوده بعد عدمه دخولا في الحدث وكونه في الاولى دخوله في العدم وان تجتمع صفة الازل والعدم في شيء واحد .

فقال عبد الكريم : هبك علمت في جزء الحالتين والزمانين على ما ذكرت واستدللت على حدوثها .

فلو بقيت الاشياء على صغرها من اين كان لك ان تستدل على حدوثها .

فقال الصادق عليه السلام لقد كان بحثنا على هذا العالم الموضوع فلو رفعناه ووضعنا عالماً آخر كان لا شيء ادل على الحدوث من رفعنا اياه ووضعنا غيره . ولكن اجبتك من حيث قدّرت انك تلزمنا فانقطع وخزي .

ومنها : انه جاءه زنديق وقال له : كيف يعبد الله ولم ير ؟

فقال ابو عبد الله رأته القلوب بنور الايمان ، واثبتته العقول بيقظتها اثبات العيان ، وابصرته الابصار بما رأته من حسن التركيب واحكام التاليف ، ثم الرسل وآياتها والكتب ومحكماتها ، واقتصرت العلماء على ما رأت من عظمته

دون رؤيته .

هذا قليل من كثير وشذرات لامعة من مناظراته ومحاججاته مع من تنكب عن سبيل الهدى وحاد عن سنن الحق .

ذكرناها كنموج مما امتحن بها الامام عليه السلام في عصره من المشاكل الاجتماعية والانحرافات الدينية والمذهبية .

وليتأمل بها من آمن وصدق لتكون له عبراً وعظات وطريقاً مستقيماً للوصول الى الحقيقة كي يثبت ايمانه وترسخ عقيدته .

جوامع كلمه وحكمه

قال الاستاذ رمضان لاوند فيما اقتطفناه منه :

لقد كان الامام عليه السلام متفوقا في خلقه متفوقا في حسن معاملته للناس متفوقا في تصوير المثل الاعلى الادبي لمن يطلب العلم في مجالسه او يذهب مذهبه من اتباعه او يعجب به ممن هو على مذهب غيره من العلماء والفقهاء .

كما كان متفوقا في سعة ادراكه وغوصه على الحقائق العلمية والفلسفية في عصره متفوقاً في مشاركته الشاملة التامة العميقة في كل المعارف التي شاعت في عصره فهو العالم الذي يجد اتباعه عنده الاذب والعلم بالاخبار والاحاطة بالسنة النبوية والاطلاع على التفسير الى جانب المعرفة بالمذاهب الفلسفيه والنكت العلمية وخلاصة الاراء في الطب والرياضيات والفلك والكيمياء كما يجدون عنده بصراً باسرار النحو والصرف والبيان ورواية واسعة للغات القبائل العربية ولهجاتها المختلفة ، وهو المكتبة المتنقلة التي انطوت احشاؤها على كنوز الانسانية في كل ما ورثته من علوم الاولين وما اكتسبته بعد ذلك بتجاربها الخاصة من علوم الاخرين .

والخلاصة ان الامام الصادق عليه السلام كان نموذج الانسانية الكاملة ومن اولئك الافذاذ الملهمين الذين لا يجود الدهر في التاريخ الانساني بمثله يضاف الى هذا انه ثمرة من ثمرات اهل البيت النبوى الشريف بيت العلم

والوحي والشرف .

واليك بعض جوامع كلمة الخالدة وحكمه القيمة كدليل على ما نقول ـ قال عليه السلام :

(١) اتقوا الله وكونوا اخوة متحابين في الله متواصلين متراحمين تزاوروا وتلاقوا .

(٢) من كف يده عن الناس فانما يكف يداً واحدة ويكفون عنه ايدى كثيرة .

(٣) اتقوا الله فى الضعيفين اليتيم والنساء .

(٤) ما عال من اقتصد والتدبير نصف العيش والتودد نصف العقل وقلة العيال احدى اليسارين .

(٥) ثلاثة تورث المحبة ـ الدين والتواضع والبذل

(٦) من لم يكن فيه خصلة من ثلاث لم يعد نبيلا عقل يزينه اوجدة تعينه او عشيرة تعضده

(٧) ثلاثة من كن فيه كان سيداً كعظم الغيظ والعفو عن المسيء والصلة بالنفس والمال

(٨) تجب للوالدين على الولد ثلاثة اشياء ، شكرهما على كل حال وطاعتهما فيما يأمرانه به وبنهيانه عنه فى غير معصية الله ونصيحتهما فى السر والعلانية

ويجب للولد على والده ثلاث خصال ، اختياره لوالدته وتحسين اسمه والمبالغة فى تأديبه

(٩) اذا لم تجتمع القرابة على ثلاثة اشياء تعرضوا لدخول الوهن عليهم وشماتة الاعداء بهم ، ترك الحسد فيما بينهم لئلا يتحزبوا فيشتت امرهم ، والتواصل

ليكون ذلك حافزاً لهم على الآلفة والتعاون لتشملهم العزة .

(١٠) ومن جوامع كلمه قوله : العلم جنه والصدق عز والجهل ذل والفهم مجد والجود نجح وحسن الخلق مجلبة المودة والعاقل غفور والجاهل ختور .

وان شئت إن تكرم فلن ، وان شئت ان تهان فاخشن ، ومن كرم اصله لان قلبه ، ومن خشن عنصره غلظ كبده ، ومن فرط تورط ، ومن خاف العاقبة تثبت فيما لا يعلم ، ومن هجم على امر بغير علم جدع انف نفسه وما عليك ان لا تثني عليك الناس وان تكون مذموماً عندهم اذا كنت عندالله محموداً

(١١) العامل على غير بصيرة كالسابر على غير الطريق لا تزيده سرعة السير الا بعدا .

(١٢) للكارم عشرة صدق الناس وصدق اللسان واداء الامانة وصلة الرحم واقراء الضيف واطعام السائل والمكافاة على الصنايع والتذمم الجار والتذمم الصاحب ورأسهن الحياء ـ لأن صاحب الحياء مرجو لكل مكرمة

(١٣) عجبت لمن يبخل بالدنيا وهي مقبلة عليه ، او يبخل عليها وهي مدبرة عنه فلا الانفاق مع الاقبال يضره ولا الامساك مع الادبار ينفعه

(١٤) ان خير العباد من يجتمع فيه خمس خصال ، اذا احسن استبشر واذا اساء استغفر واذا اعطى شكر واذا ابتلى صبر واذا ظلم غفر

(١٥) من رزق ثلاثة نال الغنى الاكبر الزوجة الموافقة والولد البار والصديق المصافي

(١٦) يحتاج المرء في منزله وعياله الى ثلاث خصال يتكافها وان لم يكن من طبعه ذلك ، معاشرة جميلة وسعة بتقدير وغيرة بتحصن

(١٧) افضل الصدقة ابراد كبد حراء

(١٨) ضمنت لمن اقتصد ان لا يفتقر

(١٩) لو اقتصد الناس فى المطعم لاستقامت ابدانهم

(٢٠) لا عيش احسن من حسن الخلق ولا مال انفع من القناعة باليسير المجزى ولا جهل اضر من العجب

هذه بعض كلمه الطيب وجوامع كلمه نكتفى بها ولو اردنا بيان كلما ذكرته الكتب ونحلت به الصحائف لضاق بنا مجال هذه الكراسة فان كنوز حكمه لا تعادل بثمن ولئالي بحر علومه لا تنال كلها لبعد غورها سلام الله عليه

أشهر المؤلفين من تلامذته

لقد الف تلامذته المختصون به في سائر العلوم والفنون الشيء الكثير ونحن اذ لم يمكننا احصاؤهم فانا نذكر لك بعض من اوردهم الاستاذ الشيخ اسد حيدر في موسوعته (الصادق والمذاهب الاربعة) . وهم

(١) ابان بن تغلب الربعي له تفسير القرآن والقراءآت وكتاب في الاصول على مذهب الشيعه

(٢) علي بن يقطين له كتاب ما سئل عنه الامام (ع) من امور الملاحم

(٣) ابو حمزة الثمالي له كتاب في التفسير

(٤) ابو بصير له تفسير القرآن

(٥) علي بن حمزة البطائني له جامع ابواب الفقه

(٦) اسماعيل بن ابي خالد له كتاب مبوب في القضاء

(٧) هشام بن الحكم ابو محمد الشيباني الكوفي له كتاب الامام وحدوث الاشياء والرد على الزنادقة

(٨) ابو جعفر الاحول المعروف بمؤمن الطاق والمسمى عند خصومه بشيطان الطاق له كتاب الامامة ، والمعرفة ، والرد على المعتزلة ، كتاب في امر طلحة والزبير

(٩) الفضل بن عمر الجعفي له كتاب توحيد المفضل وهو الذي املاه عليه

الامام الصادق عليه السلام بعد ان التقى المفضل بجمع من الزنادقة وناظرهم فاملى عليه الامام عليه السلام تلك الدروس القيمة التي تحتوى على دلائل التوحيد ومحكم البراهين على وجود الصانع الحكيم فى بيان كيفية خلق الانسان وتكوينه وولادته وتغذيته وغرائزه وطباعه وعظمة الابداع في اعضائه وما اودع فيه عن عجيب الصنع وعظيم القدرة كما ذكر له هيئة العالم وتاليف اجزائه وما في الحيوان من جليل الصنعة واتقان الخلقة .

وكيف جعل كل ما فى هذا العالم العلوى والسفلى مسخراً لمآرب الانسان ومصالحه الى غير ذلك.

اقول : وقد شرحت هذا الكتاب القيم (توحيد المفضل) وفصلت ما ربة وبينت مقاصده بما استطعت في اربعة اجزاء لكل مجلس من مجالسه الاربعة جزء من الشرح وقد وفقت والحمد لله لطبعها كلها باسم (امالى الامام الصادق عليه السلام) وهذا الجزء الذى بين يديك هو رابع الاجزاء نسأل المولى ان ينفع الناس بها وينفعني بها غداً انه كريم لطيف .

هؤلاء هم بعض المؤلفين من تلامذته ذكرناهم مجملا لكيلا يخلو الكتاب من ذكرهم اما الباقون فان كتب السير والتواريخ والتراجم مملوءة بهم .

علومه عليه السلام

ان معتقدنا نحن الشيعة الامامية في الامام عليه السلام انه يجب ان يكون اعلم الناس وإورعهم واتقاهم وافضلهم في كل صفة انسانية وفضيلة روحية وبدنية من علم واخلاق وتقى وزهد وما الى ذلك من مكارم الاخلاق

وذلك لان الائمة وهم العترة قرناء القرآن ومترجموه ومفسروا احكامه ومظهروا علومه للناس بعد رسول الله « ص » .

وفي القرآن بلا ريب تبيان كل شيء لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها فكان من الواجب عقلا ووجدانا ان يكون قرناؤه يعلمون كل ما فيه ليظهروه للناس ويرشدوا اليه واذا لم يكونوا كذلك عالمين بما فيه فما الفائدة من وجود القرآن بين اظهر الناس وهم لا يدركون مقاصده ولا يعرفون مراميه ومعانيه

ومن هنا كان اوصياء النبي « ص » هم خزان علمه ومبلغي رسالته من بعده قد اصطفاهم الله لذلك بعد نبيه واختارهم لبث الدعوة وارشاد الخلق بعد رسوله « ص » .

لذلك نجد مدرسة الامام ابي عبد الله الصادق عليه السلام هي الجامعة الاسلامية الكبرى التي تفد اليها رواد العلوم وطلاب الحقيقة من كل حدب وصوب لينتهلوا من قراتها العذب ما يبرد غليل الصادي منهم ويروي عطش الظامي من حديث وفقه وتفسير واخلاق وكلام وطب وكيميا ونجوم وغيرها

من كل مانطلبه رواد العلوم وطلاب المعارف .

اما الحديث : فكان عليه السلام يرويه عن آبائه عن جده النبي « ص » عن جبرائيل عن الله تعالى ومن هنا قال الشاعر :

وتابع اناساً قولهم وحديثهم روى جدنا عن جبرائيل عن الباري

فكانت الشيعة اتباعه تاخذ الحديث عنه كمن يتلقاه عن رسول الله «ص» لاعتقادهم ان ما عنده لم يكن الا عن رسول الله « ص » دون تصرف او اجتهاد منه .

اما غيرهم فكانوا يرون سيادته وخلافته وامامته في العلوم ويعدون اخذهم منه منقبه شرفوا بها وفضيلة اكتسبوها .

وقد اجمع المؤرخون ان الراوين عنه بلغوا الاربعة آلاف ويزيدون ، فاذا كان هذا عدد الرواة فماذا يكون عدد الروايات عنه.

وعلى كل حال فقد جمع شطر منها في الكتب الآربعة وهي : الكافي ومن لا يحضره الفقيه والتهذيب والاستبصار ، ثم جمعت في (الوافي) ثم زادها الحر العاملي من مصادر موثوقة اخرى في كتابه (وسائل الشيعة) ثم رأى العلامة النوري غيرها من مظانها الموثوقه ايضا فجمعها في ما اسماه «مستدرك الوسائل»

هذه هي الكتب الاصول في الحديث الصادق ، كما الفت بعدها كتب كثيرة في الحديث مثل كتب الصدوق والبحار ومستدرك البحار الى غيرها

اما الفقه : فهو معرفة الاحكام الفرعية الماخوذة من الادلة الاربعة اى القرآن والسنة والعقل والنقل ، وا كثرها السنة اي حديث النبي « ص » واهل بيته ففقه الشيعة مأخوذ من هذه الادلة .

اما فقهاء اخواننا السنيين فان اكثر معاصريه منهم اخذ الفقه عنه

كابي حنيفة والسفيانين وايوب وغيرهم .

بل ان ابن ابي الحديد في شرح النهج ارجع فقه المذاهب الاربعة كلها اليه ، وكان عليه السلام يقول : في تفسير قوله تعالى ومن اوتي الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً ـ ان الحكمة هي المعرفة والتفقه في الدين والفقيه هو العارف بالحديث

اما التفسير : فان حديث الثقلين ليدل بوضوح على ان اهل البيت آل النبي هم علماء القرآن وهم المطلعون على ما فيه من محكم ومتشابه ومجمل ومبين وناسخ ومنسوخ وخاص وعام ومطلق ومقيد الى غير ذلك مما يخفى على الناس معرفته فكان الامام عليه السلام يفسر مقاصد القرآن عن آبائه عن جدهم النبي (ص) عن جبرئيل عن الله تعالى .

ولا غرابة فالقرآن هو الامام الصامت والأئمة كل فرد منهم هو الامام الناطق ينطق عن القرآن ويفسر ما فيه من تبيان الى الناس دون تصرف او اجتهاد .

اما الكلام : وليس المراد به علم الجدل في الكلام بقصد الظهور والغلبة على الخصم كما هو معروف لدى كثير من اهل الجدل وانما هو البحث عن الوجود والوحدانية وما يلزم ذلك من نبوة وامامة ومعاد بالادلة العقلية والاسس المنطقية الصحيحة وبالآثار البديعة المتقنة في الصنعة .

وقد جاء في احاديث الأئمة الكثير من الادلة والبراهين على التوحيد والمعاد كما في النهج واحتجاج الطبرسي واصول الكافي وتوحيد الصدوق والبحار الى غير ذلك من كتب الحديث والآخبار .

ولا ادل على علم الامام بالكلام وسعة اطلاعه باصوله ونواميسه من هذا

الكتاب الذي بين يديك والثلاثة اجزاء السابقة عليه من امالي الامام الصادق عليه السلام ، ومن الاهليلجة ومما روى عنه من المناظرات واجوبة المسائل المختلفة التي كان يسأله عنها اهل البدع والمذاهب اللئيمة .

واما الاخلاق : فان صاحب الرسالة النبي الكريم (ص) الذي قال الله تعالى فيه (وانك لعلى خلق عظيم) والذي يقول هو (انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق) .

كان هدفه الاسمى بعد التوحيد هي تعاليم الاخلاق الانسانية والحلال الاسلامية للناس لاسعادهم وراحتهم في النشأتين .

ومن كانت هذه غايته من رسالته كيف تراه يترك آله وذويه ومن خلفهم اوصياء وخلفاء عنه بعد وفاته ولم يهذبهم بتهذيبه ولم يربهم تلك التربية الاسلامية كما يريد الله ويريد هو .

اجل : لقد رباهم فاحسن تربيتهم وعلمهم العلوم القرانية والمعارف المحمدية واديبهم بالاداب الاسلامية ليكونوا بعده قدوة العالم وادلاء البشر الى الخير لذلك كانوا افضل مصدر لمكارم الاخلاق والمثل الاعلى لعلوم القرآن وبيان مقاصده وحكمه واحكامه كما يتضح لك ذلك في حكم الامام الصادق عليه السلام وكلمه الطيب التي كان يلقيها على اصحابه في مجلسه وفي وصاياه ورسائله ليهذبهم ويؤدبهم الاداب الاسلامية العالية .

اما الطب : فناهيك دليلا على اطلاعه الكامل ومعرفته التامة بهذا العلم الجليل وما كان يوصفه من العقاقير في وصفاته العلاجية .

اذا ما تأملت ونظرت في شرح المجلس الاول من توحيد المفضل من هذا

الكتاب فقد بين فيه الانسان وتكوينه وتشريح اعضائه وجوارحه وما اودع فيها من القوى الجبارة في القلب والدماغ وغيرهما .

مضافاً الى بعض مناظراته القيمة مع الاطباء كالطبيب الهندى في الاهليلجية وغيره مما ذكرته الكتب المفصلة ثم وصفاته الناجحة واجوبته الشافية لمن كان يستوصفه عن الامه وادوائه .

اقول : وقد جمعت انا اضمامة عطرة من كلماته الطبية ووصفاته وارائـــه وعلاجاته في كتيب اسميته (طب الامام الصادق)

ذكرت فيه كثيراً من إقواله وارائه الطبية التي اظهرهـا الطب الحديث بعد قرون ونسبها لمكتشفي هذا العصر مفتخراً باكتشافها .

في حين انها كانت مذكورة بكل وضوح على كلامه في املائه على المفضل في توحيده فراجعه لترى صدق مدعاى وهو الحق .

اما الكيمياء : فان تلميذه جابر بن حيان الصوفي الطرسوسي الشيعي الامامي كان من اشهر تلامذته في الكيمياء وقد عرفه الغربيون واكبروه واعترفوا باخذه ذلك العلم عن استاذه الامام الصادق عليه السلام .

وقد الف جابر هذا في الكيمياء رسائله البالغة الف ورقة وكلها تتضمن رسائل جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وفيهـا كلها يقول قد اخذت ذلك عن سيدى ومولاى الصادق عليه السلام .

اما الفلكيات والنجوم : فيكفيك علماً باطلاعه عليه السلام عليها اذا مـا تصفحت الجزء الثالث من هذا الشرح « امالى الامـام الصادق » فانك ستجد فيه العلم الجم والاطلاع الواسع والمعرفة الكاملة بالفلك وما حوى .

اما سایر العلوم الاخری فلا ادل علیها من الاخبار الکثیرة والاحادیث الوافرة الناطقة له بمعرفتها والشاهدة علی کماله واطلاعه .

ولا عجب فانه الامام والامام کما قلنا عالم بکل علم وفن ویجب ان یکون کذلك لانه هو المقتدی والمسؤل الاول من ارشاد العالم وهو الموضح للقران وما فیه سلام الله علیه

وصاياه عليه السلام

لقد قام الامام الصادق عليه السلام وهو المربي الرباني المسؤل والهادي المخلص للناس والدليل القائد الى سبيل النجاة بارشاد الامة ودعوتهم إلى الصلاح والاصلاح وهدايتهم الى ما يسعدهم في الدنيا والاخرة ومايخرجهم من الظلمات الى النور كما وجد طريقا للوصول الى غايته المنشودة .

فهو لا ينفك يسعى في تادية رسالته فى الدعوة الى الحق والارشاد الى الهدى طالباً بذلك تهذيب النفوس وردعها عن تلوثها بالرذائل وحملها على اكتساب الفضائل حريصاً على أنتشال هذا الانسان الغريق وتوجيهه نحو اسس الاسلام القويمة وانخاذ تعاليمه المصلحة الحكيمة لتكون امة الاسلام خير امة اخرجت للناس

فكان عليه السلام مضافاً الى ما يلقيه من كلماته الخالدة ونصائحه الحكيمة يرسل الوصايا والنصائح في رسائله الى الاطراف عامة شاملة او خاصة لبعض الافراد من اصحابه على ان هذه الرسائل الخاصة هي ايضا كالاولى فى عمومها وشمولها في النفع .

ونحن نذكر هنا بعض تلك الوصايا والرسائل كنموذج يغنينا عن بيان ما لا يحيط بكثرتها هذا المختصر احصاءاً وعداً .

ولنبدأ تيمناً بوصيته عليه السلام لابنه الامام موسى الكاظم عليه السلام

قال عليه السلام : يابني اقبل وصيتي واحفظها فانك ان حفظتها تعش سعيداً وتمت حميداً .

يابني ان من قنع استغنى ، ومن مد عينيه الى ما في يد غيره مات فقيراً ، ومن لم يرض بما قسم الله له اتهم الله في قضائه ، ومن استصغر زلة نفسه استكثر زلة غيره .

يابني من كشف حجاب غيره انكشفت عورته ، ومن سل سيف البغي قتل به ومن احتفر لاخيه بئراً سقط فيها ، ومن داخل السفهاء حقر ، ومن خالط العلماء وقر ، ومن دخل مداخل السوء اتهم .

يابني قل الحق لك او عليك ، واياك والنميمة فانها تزرع الشحناء في قلوب الرجال .

يابني اذا طلبت الجود فعليك بمعادنه فان الجود معادن والمعادن اصولا وللاصول فروعا والفروع ثمراً ولا يطيب ثمر الا بفرع ولا اصل ثابت الا بمعدن طيب .

يابني اذا زرت فزر الاخيار ولا تزر الاشرار فانهم صخرة صماء لاينفجر ماؤها وشجرة لا يخضر ورقها وارض لا يظهر عشبها .

ومن وصاياه العامة لاصحابه هذه الوصية الطويلة نقتطف منها اضاءة :

قال عليه السلام : صبروا النفس على البلاء في الدنيا فان تتابع البلاء فيها والشدة في طاعة الله وولايته وولاية من امر بولايته خير عاقبة عند الله في الاخرة من ملك الدنيا وان طال تتابع نعيمها وزهرتها وغضارة عيشها في معصية الله وولاية من نهى الله عن ولايته وطاعته ، فان الله امر بولاية الأئمة الذين سماهم في كتابه بقوله (وجعلناهم ائمة يهدون بامرنا)

وا كثروا ما استطعتم من ذكر الله في كل ساعة من ساعات الليل والنهار فان الله تعالى امر بكثرة الذكر له والله ذاكر لمن ذكره من المؤمنين .

واتبعوا اثار رسول الله (ص) وسنته فخذوا بها ولا تتبعوا اهـــواءكم واراءكم فتضلوا فان اضل الناس عند الله من اتبع هواه ورأيه بغير هدى من الله واحسنوا لانفسكم ما استطعتم فان أحسنتم احسنتم لانفسكم وان اسأتم فلها وجاملوا الناس ولا تحملوهم على رقابكم واياكم وسب اعـــداء الله حيث يسمعونكم فيسبوا الله عدواً بغير علم .

وعليكم بحب المساكين فان من حقرهم وتكبر عليهم فقد زل عن دين الله والله له حاقر ومافت .

واياكم ان يبغى بعضكم على بعض فانها ليست من خصال الصالحين .

واياكم ان تعينوا على مسلم مظلوم فيدعو الله عليكم فيستجاب له فيكم.

واياكم واعسار احد من اخوانكم المسلمين فان اباانا رسول الله (ص) كان يقول ليس لمسلم ان يعسر مسلماً ومن انظر مسلماً اظله الله يوم القيامة بظله يوم لا ظل الا ظله .

واتقوا الله وسلوه ان يشرح صدوركم للاسلام وان يجعل السنتكم تنطق بالحق حتى يتوفاكم وانتم على ذالك وان يجعل منقلبكم منقلب الصالحين .

واعلموا ان الاسلام هو التسليم والتسليم هـو الاسلام فمن سلم فقد اسلم ومن لم يسلم فلا اسلام له .

وهذه الوصية طويلة تجدها كلها في مكانها .

ومن وصيته لعبد الله بن جندب :

يابن جندب يهلك المتكل على عمله ولا ينجو المجترى على الذنوب برحمة الله تعالى .

فقال ابن جندب : فمن ينجو : قال عليه السلام : الذين هم بين الخوف

والرجاء كان قلوبهم في مخلب طائر شوقا الى الثواب وخوفا من العذاب . يابن جندب : من سره ان يزوجه الله من الحور العين ويتوجه بالنور فليدخل على اخيه المؤمن السرور .

يابن جندب : الساعي في حاجة اخيه كالساعي بين الصفا والمروة ،والقاضي حاجته كالمتشحط بدمه في سبيل الله يوم بدر واحد ، وما عذب الله امة الا لاستهانتهم بحقوق فقراء اخوانهم .

يابن جندب صل من قطعك واعط من حرمك واحسن الى من اساء اليك وسلم على من سبك وانصف من خاصمك واعف عمن ظلمك كما تحب ان يعفى عنك فاعتبر بعفو الله عنك الا ترى إن شمسه اشرقت على الابرار والفجار وان قطره ينزل على الصالحين والخاطئين . وهي طويلة ايضا جمعت جلائل الحكم ونفائس المواعظ .

ومن وصيته لزياد الشحام آمراً له ان يقراها على اتباعه وشيعته :

ادوا الامانة الى من ائتمنكم عليها براً او فاجراً ، وصلوا عشائركم واشهدوا جنائزهم وعودوا مرضاهم وادوا حقوقهم ، فان الرجل منكم اذا ورع في دينه وصدق الحديث وادى الامانة وحسن خلقه مع الناس قيل : هذا جعفري ويسر في ذلك ويدخل على منه السرور واذا كان غير ذلك دخل علي بلاؤه وعاره وقيل هذا ادب جعفر .

ومن وصيته لمؤمن الطاق قوله :

يابن نعمان اياك والمراء فانه يحبط عملك واياك والجدال فانه يوبقك واياك وكثرة الخصومات فانها تبعد عن الله .

يابن نعمان : من سئل عن علم فقال لا ادري فقد انصف العلم والمؤمن

يحسد في مجلسه فاذا قام ذهب عنه الحقد .

ومن وصيته للمعلى بن خنيس قوله :

يامعلى خف الله تعالى يخف منك كل شيء ، تحبب الى اخوانك بصلتهم فان الله جعل العطاء محبة والمنع مبغضه .

ومن وصيته لسفيان الثوري قوله :

ياسفيان لا مروءة لكذوب ولا امن لملول ولا راحة لحسود ولا سؤدد لسيء الخلق فقال يابن رسول الله زدني ، فقال عليه السلام : ثق بالله تكن مؤمنا وارض بما قسم الله لك تكن غنياً واحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً ولا تصحب الفاجر يعلمك من فجوره وشاور في امرك الذين يخشون الله عز وجل ، قال زدني فقال من اراد عزاً بلا عشيرة وغنى بلا مال وهيبة بلا سلطان فلينتقل من ذل معصية الله الى عز طاعته .

هذه قطرة من محيط كلمه الطيب ووصاياه الخالدة الثمينة وغيض من فيض ارشاداته وتعاليمه فانه عليه السلام كان دوما لم يترك نهجاً للنصح الا سلكه ولا بابا للارشاد الا ولجه ، وما ذلك منه الا طلباً لاسعاد الناس في الدارين وفوزهم في الحياتين فلا عجب فانه الامام وكفى .

محنه ووفاته بالسم

لم تتفق الدنيا والآخرة في يوم من الايام ولم يتصاف اهلوهما معافى عصر من العصور ، فهما دائماً في صراع وتطاحن ، فان سكت اهل الدنيا في وقت من الاوقات عن مصارعة اهل الدين فما ذلك الا لكي يستعدوا للوثوب عليهم عند سنوح الفرص الواتية .

وغير خاف عليك مالبني امية و بني العباس من الحقد والعداوة لاهل بيت النبوة والوحي ما دام اهل البيت مثال الدين وما داموا هم مثال الدنيا .

ولما كان الامام ابو عبد الله الصادق في عصرهما هو المثال الرموق للدين وهو الامام المسؤل عن حفظ الشريعة وارشاد العالم الى الحق ودحض الباطل كان هو الهدف الوحيد للصراع وهو المقصود ابداً بتوجيه حراب عدائهم وعوادي محنهم واذاياهم اليه .

ولولا ضعف الامويين وانهيار حكمهم لما ابقوا على الصادق عليه السلام ولكنهم سلموه الى ابناء عمه من العباسيين الذين كانوا عليه وعلى العلويين من ابناء علي وفاطمة اشد واقسى .

فهذا عبد الله السفاح اولهم لم يتسم كرسي الحكم ولم يقض على الامويين قتلا وفتكا حتى ارسل الى الامام عليه السلام من المدينة الى الحيرة وكان مقصده الفتك به غير ان الموت عاجله فلم يصل الى ما اراد ورجع الصادق عليه

السلام الى المدينة .

ولما خلفه المنصور وقف له بالمرصاد فعانى منه الامام عليه السلام ضروب المكاره والاذايا والمحن حتى لم يكتف ولم يكف عنه دون ان اذاقه السم وتوفى به

قال ابن طاووس فى مهج الدعوات : دعاه المنصور سبع مرات في المدينة وفي الربذة والكوفة وبغداد ، وما كان يرسل عليه مرة الا ويريد قتله ، وكان يسمعه فيها سوء القول والكلام الخشن .

فالاولى في المدينة وكان المنصور حاجاً فارسل عليه وارهب عياله وكان قصده ان يوقع به ولكنه انصرف عما اراد بدعاء الامام

والثانية ايضا في المدينة عندما حج مرة اخرى فانه قال للربيع وهو فى الطريق اذا نزلت المدينة فاذكرلى جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي فوالله المظيم لا يقتله غيرى وان لم تفعل لاضربن عنقك .

ولما نزل المدينة ذكره فقال نعم اذهب ياربيع فأتني به ولا تاتى به الا مسحوباً قال فجئت به وادخلته عليه وانا اسحبه من كمه ، وكان المنصور جالساً وبيده عمود حديد يريد ان يقتله به قال الربيع ونظرت الى جعفر بن محمد يحرك شفته بشيء لم افهمه فلما دنا منه قال له ادن منى يابن العم وقبل وجهه واجلسه على السرير وتكلم معه واعتذر اليه من ازعاجه ثم اركبه بغلة وامر له بصلة وبدره وامره بالانصراف .

والثالثة لما نزل المنصور الربذه وكان الامام يومئذ بها .

قال مخرمة الكندى قال لى المنصور وهو غضبان فم يابن جبله الية (الى الصادق) فضع فى عنقه ثيابه ثم التفى به سحباً فقمت فوجدته فى المسجد فقلت اجب امير المؤمنين فقال عليه السلام : انا لله وانا اليه راجعون دعنى اصلى

ركعتين فلما صلى دعا بدعاء مختصر وقال اصنع ما أمرت به فلم افعل ولما انتهينا الى الستر دعا بدعاء آخر ، ثم دخل وجلس فقال له المنصور والله لاقتلنك فجعل الامام يعتذر ويقول ما فعلت شيئاً يا امير المؤمنين فارفق بي فلقد اصحبك فاطرق قليلا ثم قال له انصرف .

والرابعة استدعاه الى الكوفة ولما دخل عليه وكان المنصور قد رفع الى السيب بن زهير سيفاً ليضرب عنقه عند اشارته اليه ، ولكنه لما دخل عليه زال غضبه وعانقه وقال له يا ابن العم عزيز علي تعبك ولكني اشكو اليك اهلك فقد قطعوا رحمي والبوا علي الناس ، ثم امر له بـــداية فاركبه عليها وقال له انصرف بالسلامة .

والخامسة استدعاه الى بغداد ومن بيته في بغداد ارسل عليه ليلا حافيا حاسراً في قميصه ومنديله وكان قد جاوز السبعين او ذرف عليها .

ولما وصل قبل دخوله على الطاغية صلى ركعتين ودعا بما اراد ثم دخل ، فلما نظر اليه المنصور قال له : وانت يا جعفر ما تدع حسدك وبغيك وفسادك على اهل هذا البيت من بني العباس .

فقال والله يا امير المؤمنين ما فعلت شيئاً من ذلك ، ولقد كنت في ولاية امية وهم اعدى الخلق لنا ولكم فوالله ما بغيت عليهم وكيف اصنع الان هذا وانت ابن عمي وامس الخلق رحماً بي واكثرهم عطاء وبراً ، فاطرق ساعة ثم قال ابطلت وائمت ثم ثنى الوسادة فاخرج منها اضبارة كتب فرمى بها اليه وقال هذه كتبك الى اهل خراسان تدعوهم الى نقض بيعتي وان يبايعوك دوني فقال عليه السلام والله يا امير المؤمنين ما فعلت ذلك ولا استحل ذلك ولا هو من مذهبي واني لمن يعتقد طاعتك على كل حال وقد بلغت من السن ما قد اضعفني عن ذلك

لو اردته فصيرني الى بعض حبوسك حتى يأتيني الموت فهو قريب مني ، فقال لا ولا كرامة ثم اطرق وضرب يده على السيف فسل منه شبراً واخذ بمقبضه ثم رده وقال ياجعفر اما تستحي مع هذه الشيبة وهذا النسب ان تنطق بالباطل وتشق عصا المسلمين الى غير ذلك من سوء القول والامام يعتذر .

ثم انتضى سيفه الا قليلا ثم اغمده واطرق ثم رفع رأسه وقال اظنك صادقاً وسيره .

السادسة استدعاه ايضا الى بغداد مرة ثانية بعد قتل محمد وابراهيم ابني عبد الله وذلك انه رفع اليه رجل من قريش للدينة كتابا يذكر فيه ان جعفر بن محمد بعث مولاه المعلى بن خنيس لجباية الاموال من شيعته وكان يمد بها محمد بن عبد الله ، فكاد المنصور ان يأكل كفه غيظا وحنقا على الامام وكتب الى عامله في المدينة بارساله .

ولما وصل الى بغداد استأذن فاذن له ، ولما رآه المنصور قربه ثم دفع اليه الكتاب المرفوع له من القرشي فقرأه فقال له ما هذه الاموال التي يجيبها لك المعلى ، فقال عليه السلام معاذ الله من ذلك فقال المنصور تحلف على براءتك بالطلاق والعتاق .

قال عليه السلام نعم احلف بالله انه ما كان من ذلك شيء ، قال الطاغية لا بل تحلف بالطلاق والعتاق فقال الامام ، اما ترضى بيميني بالله الذي لا اله الا هو ، فقال المنصور لا تتفقه علي ، فقال الامام عليه السلام اين يذهب الفقه مني ، فقال المنصور دع هذا فاني اجمع بينك وبين الرجل ، فجيء بالرجل وسألوه فقال نعم هذا صحيح وهذا جعفر بن محمد والذي قلت فيه كما قلت ، فقال الامام عليه السلام تحلف ايها الرجل قال نعم والله الذي لا اله الا هو الطالب

الغالب الحي القيوم ، فقال له الامام لا تعجل في يمينك فاني استحلفك ، فقال المنصور ما انكرت من هذه اليمين .

فقال الامام عليه السلام ان الله تعالى حي قيوم يستحي من عبده اذا اثنى عليه ان يعاجله بالعقوبة لمدحه له ولكن قل ايها الرجل ابرأ الى الله من حوله وقوته والجأ الى حولي وقوتي اني صادق بر فيما اقول فامتنع فقال له المنصور احلف فحلف ولم يستتم كلامه حتى اجذم وخر ميتا .

فراع المنصور ذلك وارتعدت فرائصه ، ثم قال يا ابا عبد الله مر من غد الى حرم جدك ان اخترت ذلك فوالله لا قبلت قول احد بعدها ابدا .

السابعة بعث عليه المنصور وهو في بغداد ، وكان قبله يقول لقد هلك من اولاد فاطمة مقدار مائة او يزيدون ويبقى سيدهم وامامهم جعفر بن محمد وقد آليت على نفسي ان لا امسي عشيتي هذه او افرغ منه .

ثم دعا سيافا وقال له اذا اتى جعفر بن محمد وشغلته بالحديث ووضعت قلنسوتي من رأسي فهي العلامة بيني وبينك فاضرب عنقه ، ثم احضر الامام عليه السلام ولما دخل عليه صار القصر يموج كانه سفينة في لجج البحار وصار المنصور يمشي بين يدي الامام حافي القدمين مكشوف الراس قد اصطكت اسنانه وارتعدت فرائصه يحمر شاهة ويصفر اخرى .

ثم اخذ بيد الامام واجلسه على سرير ملكه وجثا بين يديه كما يجثو العبد بين يدي مولاه ثم قال له يا بن رسول الله ، ما الذي جاء بك الساعة ؟

فقال عليه السلام : طاعة لله ولرسوله ولك يا امير المؤمنين ، فقال المنصور ما دعوتك والغاظ من الرسول ، ثم قال سل حاجتك ، قال عليه السلام حاجتي ان لا ترسل علي لغير شغل قال له ذلك لك ، ثم انصرف ابو عبدالله سريعا

هذه الدفعات السبع المشهورة في كتب التواريخ والسير وقد ذكر المؤرخون ممن ذكر حياة الامام عليه السلام غير هذه وكلها كان يدفعها بالدعاء المستجاب والتضرع الى الله تعالى .

ولكن الطاغية المنصور على ما كان يرى من هذه الكرامات لم يزل عن عتوه وطغيانه وكان لا يفتر عن اقلاقه وازعاجه وسلب راحته وراحة عياله طوال العشر سنين التي عاشها الامام علية السلام في حكمه حتى اغتاله اخيراً بالسم على يد عامله بالمدينة وقيل ان السم كان في العنب والله للظالمين بالمرصاد

ويمسك الختام هذا من ذكر حياة الامام ابي عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام انعى العاطف في شرح رسالة توحيد المفضل مبتهلا الى الله تعالى بالشكر على هذا التوفيق راجياً منه سبحانه ان يجعل عملي هذا مقبولا خالصاً لة سبحانه ووسيلة عنده في يوم القى به صادق آل البيت واعطى كتابي بيميني غداً انشاء الله بفضله وكرمه انه الكريم الغني المتفضل .

وختاماً اقول : رب اوزعني ان اشكر نعمتك على وعلى والدي وان اعمل صالحاً ترضيه ، واصلح لي في ذريتي اني تبت اليك واني من المسلمين

(واجعلني يارب ممن قبلت عملهم بما وعدتهم عليه وعد الصدق اذتقول) اولئك الذين نتقبل عنهم احسن ماعملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في اصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ،وآخر دعواهم إن الحمدلله رب العالمين

وقد ارخت عام اتمام طبع هذا الشرح اعني شرح الامالي بقولي :

توجهت روحي الى ذي الجلال ... ليرفع شكري له بابتهال
فولاي منّ على عبده ... بما قد حباني وسام الكمال
عرجت لاجواء درس الامام ... باجنحة العقل لا بالخيال
لاشرح آيات توحيده ... باجلى بيان واحلى مقال
واكشف عن كنزها كي يرى ... بها الجيل كم قد حوت من لئالى
فجائت مفصلة حسبما ... استطعت وما كان لي من مجال
فان قبلت فزت يوم الحساب ... وان رفضت ساء في الحشر حالي
ولي امل بنوال الكريم ... بان لا اعود وكيسي خالي
فكم جاء قبلي من طالب ... اليه فوفره بالنوال

وقد سجل الحق تاريخه
لقد كمل الشرح شرح الامالي
١٣٨٤ هـ

وقد تفضل الاخ الفاضل والمؤرخ الشهير السيد محمد الحلي بهذا التاريخ الجميل ضمن مقطوعة بديعة فقال :

ان شرحاً قد فتحت للامالي فيه عن سر كنزها اقفال
بالبراهين اثبت الصادق التوحيد فيها فاندك منها الضلال
وتساوى الأيمان واتضح الحق جلياً بما حواه المقال
حيث قد وفق الخليلي للشرح ومن قبل لم تنله الرجال
اهلا كان في النفوس كهذا السفر يبدو لها فعز المنال
ثم نيل المنى فارخت لكن في الامالي تحققت آمال

١٣٨٤ هـ محمد الحلي

مراجع الكتاب

١ : القرآن الكريم

٢ : مجمع البيان للطبرسي

٣ : مجمع البحرين الطريحي

٤ : على اطلال المذهب المادي لمحمد فريد وجدي

٥ : قانون الزواج الياس الفضبان

٦ : شرح الصحيفة السجادية السيد عليخان

٧ : توحيد الصدوق ره

٨ : الصادق والمذاهب الاربعة العلامة اسد حيدر

٩ : حياة الصادق عليه السلام الشيخ موسى السبيتي

١٠ : الصادق عليه السلام المرحوم الشيخ محمد حسين مظفر

١١ : الهوامل والشوامل لابن مسكويه وابن حيان

١٢ : وغيرها من مقتطفات الكتب

الفهرس

الصفحة	المواضيع
٣	مقدمة الكتاب
٨	الشروع في الكلام
١٩	الصلاة على النبي (ص)
٢٢	الصلاة على آل النبي (ص)
٢٥	مختصر امالي الامام في الايام الثلاثة
٢٧	المعطلة والثنائية واصحاب الطبايع
٣٥	ذريعة الجهال الى جحودهم
٤٠	الصنف الثاني من الجهال
٤٥	ليس الانسان بمعصوم
٤٩	هل تعطى الاخرة بلا استحقاق كما تعطى الدنيا
٥٢	لماذا تعم الافات البر والفاجر
٥٥	اذا اصابت الاموال فلماذا تبتلى الابدان
٥٩	لماذا تحدث هذه الافات
٦١	انتقاد الجاحدين لحكمة الموت
٦٦	انتقادان آخران
٦٩	انتقاد اسخف
٧٣	الطعن على التدبير
٨٣	من تدبير الملوك تأجيل العقاب والجزاء او تعجيلها
٨٨	العالم زينة
٩٠	اصناف الجاحدين
٩٣	العقل لا يدرك فوق مرتبته
١٠١	لا يكلف الله نفسا الا وسعها
١٠٤	الامثال تقود العقل الى معرفة الله
١٠٨	العقول تختلف في ادراكها
١١٣	الله لطف على مدى ما تبلغه الاوهام
١١٥	الله متعال على كل شيء مباين لكل شيء
١١٨	الله اقرب من كل قريب
١٢١	خرافة اصحاب الطبايع
١٢٤	انكار العمد والتدبير في الخلقة

الصفحة	المواضيع
١٢٩	رد على منكرى القصد فى الخلقة
١٣٤	الطبيعة تسير وراء الحكمة والتقدير
١٣٦	خاتمة المجالس الاربعة
١٤٢	مسك الختام فى اضامة من حياة الامام عليه السلام
١٤٣	تمهيد
١٤٧	ولادته ونشأته ووفاته
١٥٠	ملامحه وشمائله
١٥٢	حياته فى المجتمع
١٥٦	الصادق فى انظار العلماء
١٦١	مدرسته
١٦٥	مناظراته عليه السلام
١٧٣	جوامع كلمه وحكمه
١٧٧	إشهر المؤلفين من تلامذته
١٧٩	علومه عليه السلام
١٨٥	وصاياه عليه السلام
١٩٠	محنته ووفاته بالسم
١٩٦	تاريخ المؤلف لاتمام طبع الشرح
١٩٧	تاريخ الفاضل المؤرخ السيد محمد الحسينى الحلى لطبعه
١٩٨	مراجع الكتاب
١٩٩	الفهرس